حدث في العاشرة والنصف

حدث في العاشرة والنصف

قصص

فريق نوڤيستوري

تصميم الغلاف: حسن العربي

تدقيق لغوي :هاني ابراهيم

رقم الإيداع: 2299 /2020

I.S.B.N:978- 977-6640-77-1

الطبعة الأولى2020م

الإدارة: 17 ش عزت باشا المطربة، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

مدير النشر : د. رامي عبد الباقي

هاتف: 01099387500 - 01147633268

E – mail:zeinpublish2017@gmail.com
Facebook: Zein Publish

جميع الحقوق محفوظة©

فريق نوڤيستوري

حدث في العاشرة والنصف

قصص

نوڤيستوري

من نحن؟!

نوڤيستوري... ورشة لاكتشاف الموهوبين في كتابة "القصة القصيرة والرواية".. تأسست في العام 2019 ميلاديا بالتعاون بين:

الكاتبة أميرة حسن الكيكي

والكاتب أحمد الطوبجي

أهداف الورشة؟!

يعد الهدف الأساسي للورشة هو إثبات أن ذلك المجتمع ما زال يملك قدرا من الجواهر الثقافية وإن كانت قابعة بالقاع، لذا فإن هدف الورشة الرئيسي التنقيب عن تلك المواهب الدفينة وإبرازها بالمكان الملائم لها ووضعها على بداية طريق الحياة الأدبية النزيهة بالتعاون مع دور النشر التي تسلك نفس الدرب، بعيدا عن الاستغلال المادي لطموحات الشباب ومواهبهم.. لذا:-

فعلى من يجد بنفسه الموهبة الانضمام إلينا الآن ودون تفكير

للانضمام إلى فريق العمل برجاء الاتصال بأحد الأرقام التالية:-

01270992744

01227662741

أو التواصل معنا عن طريق الفيسبوك:-

https://www.facebook.com/WR.AHMEDTOPGY

نوڤيستوري.. . من الصفر وحتى النشر

إهداء

إلى روح الكاتب الكبير والأب الروحي د/ أحمد خالد توفيق

نهدي إلى روحك الطاهرة تلك الكلمات المتواضعة، واعلم أننا على دربك سائرون.. فأنت من جعل الشباب يقرأون، ونحن سنسعى - وإن كنا أقل من ذلك – لجعلهم يكتبون.

السيدات والسادة الكرام.. نقدم لكم وبكل فخر أولى أعمال ورشة نوفيستوري، ونتمنى أن ينال إعجابكم..

تدفعنا الحياة نحو الهاوية، نقاوم قدر استطاعتنا.. ويتكالب علينا الجميع، فنخر مستسلمين لا حول لنا ولا قوة..

يركض الوهم كوحش يريد افتراسنا، فنركض ليصير كل منا (هاربا)..

وبعد ظن لم يستمر طويلا بأننا فررنا أتانا ذلك الوهم من أسفل (اللوح الثالث عشر)

فلم نجد مفرا منه سوى (العُزلة)

فصرنا جميعا أسرى لذلك (الصوت) الغليظ الذي يجلد ذاتنا

الفصل الأول

الوهم

1- الهارب سامح الدالي

2- اللوح الثالث عشر سلمى فياض "مارسلين"

3- العُزلة نيرة الحديدي

4- الصوت رنيم محمد

1- الهارب

"الوهم كنزٌ عن الورى يرهقه القديسون"

سامح الدالي.

"مقهى وسط القاهرة"

"1880 ميلاديا"

الجو هادئ، الإضاءة خافتة؛ رائقة لقديس باحث عن إجهاض دين لمصلحته.. رمق الجريدة المستقرة يمناه قبل أن يبتسم ويعود بناظريه لرقعة الشطرنج مردفا "مرة أخرى!؛ ألا يشعرون برمقٍ من الذنب؟!".

تنهد "فضيل" ضاما يديه إلى ذقنه المنقرة:

- مرة أخرى إذا.

- ولكن لم أكن أتوقع من تلك الجريدة بالذات.. لقد عملت بها فترة كذلك!

تلى ذلك تحريكه القطعة الثالثة معلنًا عن افتتاحية "نابليون" الشهيرة.

"أرَ أن نابليون نُهِب باسم الفائدة وما يحتاجه العالم، هل هزل كذلك من نفسه!.. بت أفكر؛ لِمَ لَم يحتفظ بها لنفسه.. طالما كان بذلك الدهاء ليخرج بخطة كتلك أليس من المفترض أن يعلم أن هنالك محتالين يقتنصون الأقل منهم خبرة للكِبر بها والظفر بأفكار غيرهم؟!، ولكن ما حقهم فهم ناهبون وهو المنهوب الراضِي باسم الفائدة".

قالها "فضيل" راسمًا ابتسامة على وجهه ثم استطرد:

- ذلك الموت الباحث عن الفِكر ليحيا يقتلني يا مراد؛ هل توافق حقًا على تلك المقالات المنهوبة!

- اعتدتُ الأمر؛ الأهم من السرقة أن العالم يظفر ببعض المعرفة.

غمغم "فضيل":

- على حساب معلوماتك.

بادله "مراد" ابتسامة سخرية:

- ما دام السارق هادئ البال فلا بأس!

- يؤرقني فِكرك يا صديقي، لست بذلك الواهب الباحث عن الظهور.. لقد دُهست يا مراد؟

أخذ "فضيل" نفسًا عميقًا أردفه بسعال حاد إثر رائحة التبغ المنتشرة بالمكان، ثم أكمل:

- قال أحدهم "هنالك شعرة رقيقة جدًا تفصل بين العبقرية والجنون" أعتقد أنك مزقت تلك الشعرة منذ زمن بالفعل.

- إن كان الجنون ينطق بالمعرفة حتى وإن كان عن الورى؛ فأنا الشاكِي إلى ذاتي بالجنون عن المعرفة.

تخلل أتباعه بعض الصمت، واهٍ به مكملا:

- لكن هل أزيدك من القصيد بيتا؟

- ماذا؟

- ما يجعلني أبتسم كل سرقة تؤتيني؛ ليس سخريتي من السارق إنما فخري بمَا تبقَى لي من ذاتي مساويًا إياك؛ تذكري كل سرقة أن تلك كتبتها ثم أنسَى بعد ذلك ما خطت يداي.

تنهد متبعا:

- نسيت كل شيء تقريبا.. لا أذكر حتى الساعة ما كنت أفعل أمس أو أين؟.. بتُ أعتقد أني مصاب بداء النسيان.. هل أنا كذلك؟

انسدلت دمعة قد ترقرقت بعيني "فضيل"، بينما نظر "مراد" بعينيه لرِقعة الشطرنج بيأس متجهما:

- حتى أصدقائي.. بالمنسابة أين أصدقائي مني اليوم يا فضيل، إني حتى لا أذكرهم.

***

بادلت نظراته نظرات اللوحة المعلقة "مستشفى العباسية للصحة النفسية.. تأسست عام (١٨٨٣ ميلاديا).

تولى ذلك الملف أمامه مهمة الجلوس على مكتبه موفيًا القهوة مكانها بجانبه.

نظر إلى الملف بعدما أرخى الربطة الجائلة حولها..

"مراد صدقي عبد الواحد" "الصحفي"

***

عادت نظرته تؤرقه نحو فضيل الذي هبت مكانه أدخنة التبغ مستوليةً على مكانه.

رمق رقعة الشطرنج "لم تتحرك!".

- يا إلهي؛ كل ذلك لأني لم أوافيك احتجاجك على صمتي يا فضيل؟ عُد يا فضيل.. ذلك الثبات الذي سعيت لإثباته يتهدد بمغادرتك، إنه يحفز جنوني.

ضرب بقبضته على الطاولة أمامه صارخًا "فضيل!".

***

"خط مزعج".. أضطر دكتور "كريم" المجاهرة به لقراءته!

مُشخص "العُصاب"، الفُصام حاد"، "ألزهايمر".

خاتمًا بالكلمة المكتوبة أسفل معلومات الحالة "الهارب".

***

نظرت إليه الجموع حوله في رهبة، أرفق رأسه على الطاولة مزحزحًا رِقعة الشطرنج من مكانها.. ابتسم ابتسامة نكراء مردفاً:

- ليتني أتوهم يومًا حبيبة تحتضن رجفتي.

***

2- اللوح الثالث عشر

سلمى فياض "مارسلين"

أنا إيميلي أبلغ من العمر ثماني سنواتٍ ونصف وتلك الرسمة بها جاك, إنه صديقي الخيالي, هو أيضا كلبي الأسود الذي ينزهني كل يوم ممسكا بطوقٍ يُزين عنقي حتى لا أتركه وأهرب, صدقًا لم أعد استطيع تركه.

تعرفت إليه منذ عامين ونصف تماما، لم أكن أحب النوم في الليل, لم أكن من هواة النوم على الإطلاق فكنت أقضي الليل كله مع دميتي وبعض الألوان.

كانت غرفتي دائما معتمة, ذات جدران رمادية اللون بخلاف غرف الفتيات الوردية, لا يوجد بها تهوية لكنها كانت مكاني المفضل.

كانت غرفتي واسعة وكبيرة وأرضيات غرفتي خشبية تصدر صوت صرير, كان يصدر من جزءٍ أسفل سريري.

- هناك كان ينام جاك دائما, تحت سريري! ولكنه قد أخبرني من قبل أنه يعيش تحت الأرضية تحت اللوح الثالث عشر وليس تحت السرير, كم هو أبله!!, مخبأٌ سري تحت اللوح الثالث عشر من أرضية غرفتي؟ ترهات.

- لطالما قرأت قصص عن الأطفال الذين يؤمنون بوجود ذلك الصديق الذي لا يؤمن أحد غيرهم بوجوده ولكنني اختلف فأنا أكبر بنصف عام وبعد النصف الآخر سوف أصبح في التاسعة من عمري, أنني انتظر منذ سنوات عيد مولدي التاسع.

- أوه حسنا لنعود إلى ما كنت أقول, أنا الطفلة الوحيدة التي لا تؤمن بوجود جاك على خلاف البقية, أو ذلك ما رغبت به.

- تلك لم تكن نظرتي أنا فقط، فأمي في كل مرةٍ تخبرني أنه أحد خيالاتي وأنه لا يجدر بي تصديق وجوده.. إن أخبرني بذلك, ولكنها بعد أن تخبرني بذلك تهرول باحتضاني والخوف يحتضننا جميعا.

وكأنها لا تُصدق ما تقول.. ولكنني أصدق.

- كان جاك يشاركني حب غرفتي, وكان يكره أيضا زائريها، كان ذلك يقلل من لقائي به.

جاك كان طويل القامة، ولكنني أشعره من عمري, كان شعره أصهبٌ وطويل, أحب الشعر الأحمر، ولكنني شقراء، إنه يحب دماي أيضا, لطالما قالت أختي ليزلي إن دماي مخيفة الشكل, ولكنها في حقيقة الأمر لطالما كانت دافئة كأرواح البشر وأكثر بل أكثر من حضن أمي.

-أوه أنني دائما ما أتشتت في الحديث!

حسنًا، كنت أقول أنني تعرفت إلى جاك منذ عامين ونصف وبعد نصف عام أكمل عامي الثالث معه وأكمل عامي التاسع أيضا، اعتقد أنني ذكرت ذلك من قبل.

- لقد تعرفت إلى جاك منذ عامين ونصف وأنا في السادسة من عمري، في بداية الأمر كان جاك دائما يظهر لي في الساعة الحادية عشر قبل منتصف الليل, عندما بدأ يحادثني من تحت السرير لم ارتعب كأنما أذكر ذلك الصوت وأشعر نحوه بالطمأنينة, في أول مرة عندما ناداني باسمي نظرت إلى دميتي وأحسست أنها تخبرني بألا أهلع, فبدأت أتجاهله للحظات ولكن لم استطع ففكرت بأن أحدثه, فأخبرني أنه صديقي الخيالي وأنه لابد من وجود صديق خيالي لدى كل طفل, سعدت بوجود أول صديق يمكنه الحديث معي, كان يحادثني دوما في الساعة الحادية عشرة قبل منتصف الليل أو عند الخامسة فجرا, أخبرني جاك أيضا ألا أخبر أمي عنه, لم أعلم سبب خوفه ولكن أمي سيدة لطيفه جدا.

- في اليوم السابع والعشرين من صداقتي أنا وجاك قال لي إنه يرغب في استنشاق الهواء واللعب معي في الحديقة ومع بعض الدمى, ولكنه كان يقف بعيدًا إلى حد ما بجوار إحدى الشجيرات بعد السياج, إنه يكره الشمس ويخاف أن تحرقه, الشمس لم تسبب مشكلة فكنا نلعب في كل الأحوال.

- لقد مضى عامان على صداقتي أنا وجاك، أخبرني أنه يرغب في أن أعرف أمي بوجود ذلك الصديق وقربه الشديد مني, طلب مني أصف لها شعره الأصهب, قامته الطويلة وتلك الأغنية التي كان يدندنها لي, أخبرني أنه يعتقد أن أمي سوف ترحب بوجوده, ولكنني كنت على خلافه, فلا اعتقد أن أمي سوف ترحب بخيالاتي.

لقد مر عامان ونصف, أخبرتني أمي وقد أهلكها الإرهاق - فهي لم تأكل ولم تنم لعده أيام كثيرة- وملأ قلبها الذعر، يجب أن نترك المنزل.

فقلت لها أنني أرغب بأن يرافقنا جاك في المنزل الجديد, ولكنها صرحت بهلع وأخبرتني أن جاك ليس خيالا, جاك حقيقة, هربت قبل أن تكمل حديثها, هربت من أن أصدق ما تقول, وقررت الاحتفاظ بأخر نصف عام.

- ذهبنا إلى منزل في ولاية أخرى، كنت حزينة لتركي جاك وبعض الدمى, وظننت أنني لن اعتاد على غرفتي الجديدة, كانت ذات أرضية خشبية أيضا, قررت الاحتفاظ بآخر نصف عام.

نصف عام لا يمضي, نصف عام توقف به الزمن, ذلك النصف عام الذي ظل سجنًا لعشرين عاما.

- ذهب جاك, أخذ أمي القديمة معه "عندما أخبرتها عنه".

أخبرني أن لديها بعض الأعمال في المدينة وحالما تنهيها سوف تعود إلى أمي في القرية, ترك لي دمية جديدة تشبه أختي, وتشبه عطره, ذهب جاك وبقيت دميته, وبقى صرير اللوح الثالث عشر تحت السرير يؤنسني في الليل، في غرفتي الخشبية.

3- العُزلة

نيرة الحديدي

في غُرفة بَهتت ألوانُها، وفي أبعد أركانِها، يجلس مُنزويا غير مُكْتَرِثْ بِبرودة المكان حوله، رُبما كانت الوحدة التي يشعر بها أشد برودة من اليابسة التي لم يُفَارقها لأيام، مُعانقًا ساقيه.. يُفكر فيما حَدث، وكيف بهذه السرعة؟!.. كيف فقدهم.. ولمَ؟!.. ألهذا الحد هو لا يُطاق؟، كان يُحَاول قدر إمكانه أن يوفر لهم كل ما يريدونه، كان يحاول أن يستمع لهم كلما ضاقت صدورهم، ولم يسمعه أحد، ومن الممكن جدًا أن يفارق الحياة دون علمهم.. ، فإن لم يَودِهم لن يَودوه.

يفكر ماذا لو أن الخطأ منه؟! ماذا لو كان اختار من يهتم لأمره ويحبه، لمَ اختارهم هم بالأخص!!، أحبهم بصدق وهذا عماه عن عيوبهم التي تحملها على مضض، وكأنه يخشى أن يبقى بمفرده وسط هذا الحشد من البشر، ولكنه كره قلة اهتمامهم فهو يستحق الاهتمام.

يخشى أن يكون قد أخطأ في حق أحدهم فأقاموا الحد جميعهم على صداقته، ولكنه أيضًا لم يعصم نفسه من هذا الاحتمال؛ فطلب منهم مرارًا أن يتناقشوا فقط ليعرف ماهية جريمته التي أثارت غضبهم تجاهه، وأبادت حبهم له، ولكن دون جدوى فلم يستجب أحد لندائه، وتركوه مصارعًا أفكاره، يحاول بكامل طاقته أن يزيلها عن عقله، ولكن لا يفيد الغارق حجب الأمواج دون أن يخرج من الماء.

تذكر لقاءهم الأول، وابتسامتهم الودودة، ابتسم بأسى وهو يتذكر تلك الصورة التي التقطوها يومها ذكرى أولى لصداقتهم، طُبعت تلك الصورة على لوح خشبي، وظلت معه، اتجه صوب المكان الذي يخفى به تلك

الذكرى، أخرجها من صندوق سنواته الماضية وظل يتأملها في صمت، حتى أن عينيه عجزتا عن البكاء.

***

تعالوا نتصور بقى بمناسبة أول يوم لينا نقابل مع بعض.

كان هذا صوت منير الذي قفز أمامهم بطريقته الطفولية المرحة ممسكًا بهاتفه، انطلقت ضحكاتهم وكأنهم يعرفون بعضهم البعض منذ سنوات.

والتُقطت تلك الصورة لتوثيق هذه الذكرى، ولكن القدر حولها إلى جلَّ أحزانه.

أخرج الصورة وأدارها، فوجد إمضاءات بأربعة خطوط مختلفة:-

منير، هند، ليلى، وأخرهم هو.. فريد.

وأُلحقت أسماؤهم بتلك العبارة "سنظل معًا إلى الأبد" والتي اشتركوا جميعًا في كتابتها..

انهمرت دموعه دافئة مقترنة بابتسامة سخرية من ذلك الوعد الذي بددته الأيام، أشعل سيجارته مُسلمًا جسده لسريره ومُسلمًا آذانه ووجدانه إلى الموسيقى:-

"أنت الذي حلفتني وحلفت لي.. وحلفت أنك لا تخون فخُنتني"

أغمض عينيه علَّ النوم يجد طريقًا إلى جفنيه، ولكن قبل أي محاولة جادة من النعاس، أنطلق صوت طرقات من باب منزله، عقد حاجبيه ذهولًا فهو يعلم أن لا أحدا يهتم بأمره، ولا بأمر زيارته، فكر في تجاهل تلك الطرقات ولكنه قرر تلبية النداء فقط إرضاءً لفضوله، الذي أوشك على النفاد هو الآخر.

اتجه صوب باب منزله وأمسك بالمقبض وفتح الباب، لتتسع عيناه عن أخرهما ذهولًا، شعر بأن قلبه على حافة الانفجار، شعر بتلك الغصة بحلقه والتي تسببت في اندفاع العَبارات مُتحجرة على حافة عينيه، فقد وجدهم أمامه!

زاغت عيناه بين ثلاثتهم وهو يحاول التماسك قدر الإمكان فهو لن يبكي مهما حدث، قطع شروده صوت منير الطفولي وهو يقول:-

- طب يا أخي قولنا اتفضلوا.. هو إحنا آه كدا كدا هنتفضل بس متخليش شكلنا وحش.

تفاجأ من أسلوبه المازح وكأن شيئًا لم يكن، وكأن قطيعة لم تحدث، أفسح لهم المجال للدخول دون أن ينطق بكلمة واحدة، فاستقر كل منهم بمكانه الذي اعتاد الجلوس فيه.

جلس بينهم كالغريب مسلطا نظراته على "هند" التي تعمدت إشاحة عينيها بعيدًا حتى أنه ود لو طردها من بيته، ما يزيد دهشته أنه لم يخطئ بحقها ولو لمرة؛ بل قدم التضحيات كقرابين، وتنازل عن فُرص كثيرة فقط لتحظى هي بها، تذكر لحظات انكسارها، كان يحاوطها بذراعيه كي لا يرى أحد دموعها، أرادها قوية دائمًا، فكان له ما أراد، وأثبتت قوتها بفراقه، تمنى لو أن المشاعر كانت شيء مادي يُمكن استرداده، تمنى أن يسلب منها كل ما قدمه من حب وتفان.

ليلى:- أزيك يا فريد؟

ها هي صديقة طفولته التي لا يكفيها جملة واحدة لمصافحة شخص ما، تُقاطع نظراته إلى هند بسؤالها الذي بدا وكأنها قد جُبرت عليه وكأنه عمل قد كُلفت به ليس إلا.

اكتفى بإيماءة

رأسه وابتسامة جامدة فقط للرد عليها، فهو لم يشعر بسلامها من الأساس حتى ينطق مجيبًا عليه، يتعجب كيف للأيام أن تجعل من كانوا قرناء لسنوات شخوصًا لا يُطاق رؤيتهم، أو حتى ذكر أسمائهم، هو لا يكرهها ولكنه لن يتقبل وجودها مرة أخرى، لقد خذلته.

خيم الصمت على الأجواء قبل أن يلاحظ نظرات منير المعاتبة له، نعم منير لم يفعل شيئًا وهذه هي العقبة بينهما، فهو فعليًا لم يفعل شيئًا، لم يجاوره وقت مرضه لم يهتم بجمعهم مرة أخرى، لم يكترث لأي شيء وكأنها أمنيته فما لبث أن افترق فريد عنهم ليتنفس هو الصعداء واطمأن قلبه.

خالطه قليل من الإحراج فهو يعلم اهتمامهم المبالغ به بالمظاهر، لا يتخيل مظهره أمامهم الآن، فهو لم يقف أمام المرآة منذ عدة أيام.. ولكنه متيقن بحضور سواد الليل أسفل عينيه.. ولكن تُرى ما الذي جاء بهم إليه؟!، أتاه الرد سريعًا بحديث منير الذي قال:-

- طيب إحنا جايين ناخدك وننزل نغير جو شوية، تحب تنزل معانا ولا وراك حاجة؟!

لقد عاهد كيانه ألا يعود لهم ثانيةً، ولكنه يشعر بالحنين، يشعر بالوحدة دونهم، يشعر بالغربة، لم يعطِ للصراع فرصه بالاشتعال داخله، فأومأ موافقًا وقرر التنزه بصحبتهم.

ها هو نفس مكانهم المفضل والذي اعتادوا التجمع فيه مرارًا وكأنهم تعمدوا تكرار كل شيء، مكان جلوس كل منهم وحتى قهوته التي يحتسيها، والتي احتوته عندما نفر الجميع منه.

مضت لحظات قبل أن تبدأ ليلى الكلام:- بص يا فريد.. سواء إحنا غلطانين أو أنت اللي غلطان إحنا لازم نرجع صحاب تاني، إحنا اتفقنا مش هنبعد لأي سبب، ولو حد زعل من التاني يقوله بصراحة.

- وأنتوا حافظتوا عالاتفاق؟!

خرجت جملته منفعلة ومتمردة على كل ما حدث، نظر الثلاثة أصدقاء إلى بعضهم البعض وكأنهم الباحثون عن حُجج تنقذهم من شرر عينيه المتطاير، ولكنه لم يمهلهم الوقت للتحجج فاستكمل قائلاً:-

- عايزين ترجعوا؟!.. يبقى اتعرف عليكم من تاني.. هتعب؟!.. عارف أني هتعب عشان أنا أتأقلمت أكون لوحدي وكنت اقتنعت أكمل باقي حياتي كده، لكن للأسف الحياة متنفعش بالطريقة دي.. لو عايزينا نرجع صحاب تعالوا نعتبر أن انهرده أول يوم بينا واحكيلكم عن صحابي اللي مشيوا من غير حتى ما افهم ليه.. واحكموا أنتوا عليهم.

نظرت له هند تلك النظرات المتعجرفة، قبل أن تتحدث قائلة:-

- أنت ليه بتوهم نفسك أنك مش غلطان وأننا..

- لا مش غلطان.

قاطعها صارخًا بتلك الجملة غير أبه بوجودهم بالكافيه.. ليصمت الجميع ويستكمل هو حديثه بنبرته المنفعلة:- أنا مش غلطان.. قولولي موقف واحد قصرت فيه مع حد فيكم، قولولي حاجة واحدة تخليكوا تبعدوا.

أجابت هند:- وليه ما تقولش أن أنت اللي بعدت.

ارتفعت ضحكاته الساخرة قبل أن يقول:-

- إمتى بعدت؟!.. لما كلمتك وماردتيش أكتر من مرة؟!، ولا لما كلمت ليلى وقالتلي مش قادرة أتكلم.. ولا يمكن لما كلمت الباشا وقعد يتهرب ويقول عنده شغل.

أخذت طبقات صوته ترتفع وترتفع حتى لاحظ الجميع من حوله والتفتوا لحديثه، فخرجت الجمل من فمه كالسلاح وكأنه يفرغ طاقته المخزونة من يوم تركوه، قاطع منير حديثه قائلاً:-

ممكن تهدى شوية، اهي عصبيتك دي اللي مخلية محدش طايقك.

جحظت عينا فريد من الدهشة، لقد اعترف منير بالحقيقة، لم يعد أحد يطيقه! إذن فلمَ هم معه الآن؟!.. لمَ تذكروه؟!.. فتحدث وكأن الصوت المرتفع أصبح دربه قائلاً:-

- ولما أنا وحش كده؟!.. جايين ليه؟! عايزين مني أيه؟.. ماتخليكوا أنتوا مع بعض عايشين ومبسوطين ومتأقلمين.. سيبوني وكأني مدخلتش حياتكم من أصله!!.

التفتت هند يمينًا ويسارًا قبل أن تتحدث إليه بنبرة مشمئزة من طريقته:-

ممكن توطي صوتك.. إحنا مش لوحدنا هنا.. الناس بتتفرج علينا.

أثارت جملتها غضبه علاوة على ما هو به، فخبط بقبضته على الطاولة وهب من مقعده ناظرًا إليها صارخًا بأعلى صوت:-

أنتي إزاي بالبرود ده!! أنتي جاية ليه؟؟ أنتوا جايين تاني ليه؟! ما تردوا عليا!! أنا مش عايز حد معايا.. أنا مش لعبة تسيبوني وقت ما تحبوا وترجعوا وقت ما تحبوا، فاهمين؟؟!!.. ردوا.. راجعين دلوقتي ليه.

صرخ وكأنه لن يستطيع الكلام مرة أخرى، صرخ ليلقي كل ما في جوفه من ضيق، وكأنه يريد الخلاص من كل ما بداخله، رفع رأسه وهم بمغادرتهم، ليتفاجأ بحلقة من الأشخاص وعلى وجوههم ملامح الدهشة والشفقة، فسقطت عبارتهم مشاطرين له حزنه الدفين الذي أعلن ثورته منذ قليل.

تساءل بقرارة نفسه هل هذا الحزن يليق بشجار قد يكون معتادا بين أصدقاء؟!، فلمَ هم متأثرون لهذه الدرجة، أعاد النظر إلى أصدقائه، فكانت الفاجعة!، لم يجد أحد جالسا معه، المقاعد فارغة.

لقد كان يحدث نفسه، أو بالأحرى يحدث ذاتهم القابعة داخله، الآن فقط قد أدرك سر نظرات من حوله، بدأت رؤيته في الاضمحلال تدريجيًا، ودوى صوت طنين بأذنيه، وهنا أعلن جسده العجز عن المقاومة، ليسقط نحو الهاوية.

4- الصوت

رنيم محمد

كعادتي استيقظت من نومي وبداخل رأسي نفس الفكرة التي تراودني منذ عدة أشهر لكنني أخشى أن أذهب لكن هذا الخوف ليس أكثر من خوفي أن أبقى هنا، أبقى ولا أفعل شيئا فإن كان لدى أي شخص سبب لفعل شيء، إذن فما السبب لدى لعدم فعل أي شيء؟؟

لكن هذه المرة كان الأمر مختلفا فاليوم أنا ذاهبة وبلا تراجع عن هذا.. ترددت كثيرا وأنا في طريقي للذهاب لكني على أية حال أنا من اتخذ القرار، وعليَ تحمل مسئولية هذا.. وها أنا الآن هنا أجلس في هدوء لانتظر دوري من بين القليل من الأشخاص.

"اتفضلي يا أستاذة سلا دكتورة مارفي بانتظارك"

قطع ذلك الصوت تفكيري،، فوجهت أنظاري إلى مساعدة الطبيبة وتصنعت الابتسامة، نظرت إلى الباب وتخيلت مشهدا كاملًا أرى فيه نفسي وأنا اركض لأخرج من كل هذا كما كنت أفعل عندما كنت صغيرة فأنا أكره جميع الأطباء ولكن هذا لم يحدث فأنا لم أعد صغيرة اليوم.. والآن لقد حان دورك يا عزيزتي فعليكِ الذهاب لمواجهة نفسك بالداخل، ولجت إلى غرفة الكشف لتلاقيني تلك الطبيبة التي صُدمت من صِغر عُمرها ولكن في نفس الوقت أعطاني ذلك بعضا من الأريحية.. لتبدأ هي بالحديث وهي تصافحني وتشير لي بالجلوس قائلة:-

- مرحبا.. أنا الطبية مارفي ماذا تحبين أن أنادينك؟

- سلا

حسنا سلا.. ما هي مشكلتك؟

نظرت إليها ولقد فقدت كل شيء في رأسي لأقوله فما الذي أتى بي إلى هنا!! أنا لا أعلم ما الذي أريد المساعدة به.. ماذا أقول؟؟، هل أقول لها أن تمنع أحلامي السخيفة من الظهور مرة ثانية؟ أم أقول لها أن تعطيني بعض الحبوب لتمنعني من النوم لأتخلص من هذا الصوت اللعين؟ ثم قطع كل هذا التفكير صوت مارفي وهي تبتسم قائلة:-

- لا داعي لكل هذا القلق فقط تكلمي عن أي شيء تريدينه فأنا مستمعة جيدة

- حقا لا أعلم ما الذي عليَ قوله لكنني أصبحت سجينة ساعات نومي القليلة من الليل فصوت أحلامي يلاحقني في كل مكان.. فهو يريد قتلى.. يريد هلاكي بالكامل!، والأدهى أنه دائما ما يتعمد ألا يراني ففي كل ليلة يحاول إثبات حقيقة عدم وجودي.. لا.. لا هذا ليس بحقيقة أنني موجودة.. أنت تلاحظين وجودي.. صحيح؟؟

- اهدأي ياسلا.. أنتِ هنا.. أنني أراكِ اطمئني.. هل تشرحي لي أكثر عن الأمر.. ماذا ترين في هذه الأحلام؟

- يمر هذا كل ليلة أمام عيني كفيلم قصير فأرى نفسي في كوخ كبير شديد الظلام لا يوجد له لأية أبواب وكأنه صنع ليظل مغلقا للأبد ثم اسمع صوت يردد في قوة لم أر مثلها في حياتي "لا يوجد سبيل اليوم لخروجك ياسلا" ومن بعد ذلك يبدأ الكوخ يضيق أكثر فاكثر ثم يتلاشى كل شيء حتى وجودي لم يعد وكأنني سراب في سراب..

أنهيتُ سردي لحلمي المُزعج وأنا أنظر لها متوسلة أن توقف هذا، فتحدثت قائلة:-

- وماذا أيضا؟

- كنت أرى نفسي واقفة بداخل غرفة مليئة بالعديد من المرايا لكنني لم أر انعكاس جسدي بأي واحدة فكنت التف حولي في جنون وضياع أملا

في أن أرى نفسي.. لكنني وكأني لم أكن ثم يبدأ إحساسي بنفسي ينعدم فلم أعد أشعر بوجودي على الإطلاق فأنا لست هنا في أي مكان.

نظرت إلي مارفي بعد أن لاحظت توتري الزائد فقد كنت ارتجف بشدة وكادت دموعي أن تتساقط بلا توقف.. ثم قالت

- إذا لا تريدين التحدث أكثر عن هذا فلا بأس.

نظرت إليها بعد أن أخذت نفسا طويلا:

- لعلها تكون نجدتي فهذا يومي الذي لطالما انتظرت مجيئه وها قد جاء.

- حسنا.. لنكمل حديثنا.. ماذا تشعرين حينما تواجهين هذه الأحلام ليلا بمفردك؟؟

- أشعر أنني غير قادرة على مواجهه هذا.. لا أستطيع تقبل عدم وجودي وأنا حية.. فبموتك تعلمي أنه قد انتهى كل شيء ولكن الآن ينتهي كل شيء أنا ما زلت أحيا.

- وماذا تشعرين تجاه هذا الصوت الذي يتردد كثيرا في أحلامك؟

عقدت حاجبيَ عندما ذكرتني بذلك الصوت وكأنني أخشاه قبل أن أُجيب:-

- لا أستطيع تحمل سماعه فأنا أكرهه كثيرا.. كلما تحدث أشعر أن صوته يلتف حول عنقي فأنا اختنق الآن لا مفر.

- وهل يأتي في يومك أم فقط في أحلامك؟

- فقط ليلا فهو جبان لا يأتي سوى في الظلام.. إن الظلام يخيفني كثيرا لا تسمعين به سوى سماع صوت أنفاسك المضطربة لتزيدك خوفا وظلمة.

- ومن ماذا تخافين أيضا؟؟

نظرت إليها وأنا ابتلع ريقي بصعوبة قبل أن أقول:-

- أخاف من ليل ظالم لا يوجد به سوانا.

- حسنا.. أتتذكري أول يوم.. ماذا فعل وماذا قال لكي؟؟

نعم أتذكر هذا جيدا.. قبل عدة أشهر من الآن عدت إلى البيت بعد يوم طويل مع أصدقائي وقد غفوت دون شعور مني.. فرأيت نفسي بمكان فارغ ليس به شخص والظلام بكل مكان هناك فقد كنت ارتجف من شده خوفي وسمعت صوتا لم أسمع مثل قسوته في حياتي قط كان يهمس في ثبات وسخرية:-

" سلاا.. سلاا.. اتسمعيني! هيا يا عديمة الفائدة"

- من أنت؟

- لا يهم.. فالأهم أنكِ هنا الآن.

- وأين أنا؟

- أحقا! تريدين أن تعرفي؟ لماذا تهتمي الآن وأنتِ لم تهتمي بأي شيء في حياتك.. اومئي برأسك مع ابتسامة صغيرة وقولي نعم كعادتك.. فهمتي يا عديمة الفائدة؟!

انتهيت من سرد كابوسي الأول ثم تناولت في يدي كوب الماء الذي قدمته لي مارفي ورشفت منه القليل.. ثم أكملت قائلة:-

- بعد هذا استيقظت من نومي بعد ذلك ولم أكن اهتم بالأمر فقدت ظننت أنه ليس سوى حلم سخيف لشدة إرهاقي وعدت للنوم مرة ثانية.. ولكن هذا لم يحدث فالأمر ظل يتكرر مرارا حتى أصبحت زيارته لي دائمة كل يوم، وأخذت حياتي من بعد ذلك تنتهي أمام عيني فابتعدت عن جميع من حولي، أصبحت أخاف من كل شيء حتى سريري كنت أتفادى الاقتراب منه.. أنني مدمرة بالكامل لم أعد احتمل كل هذا لم أعد..

نظرت إلى مارفي وهي تبتسم لتبث بداخلي الراحة ثم قالت:

- أريد منك أن تطمئني فكل شيء سيصبح على ما يرام.. يكفي هذا لليوم لنكمل مرة ثانية.

وبعد ذلك ذهبت إلى منزلي وبيدي ورقة صغيرة بها العديد من المهدئات والحبوب العلاجية عديمة النفع ووقفت قليلا انظر في تردد إلى غرفتي أخشى الاقتراب فأنا لا أريد النوم.. لا أريد أن أرى ما ينتظرني بعد نومي لا أريد مقابلته.. لا أريد.. جلست أشاهد التلفاز وبجانبي زجاجة من القهوة فقد انتهى الأمر لا نوم بعد الآن فهذا في نظري ملاذي الوحيد من الهلاك وبعد أيام من هذه الحرب ومحاولة تجاوز هذه الفِطرة كانت عيني من شدة إرهاقها تغفل مرات عديدة لبضع ثوان دون أمر مني لذلك ثم استيقظ مفزوعة لهذا وفي نهاية الأمر لقد فشلت مجددا في أن أهلكني جسدي وهزمني النوم.. فبأية حال مقابلته حتما ستحدث.

ماذا يحدث هنا؟! لم كل هذا؟ لماذا تبكون.. أنا هنا لم أمت بعد.. لماذا لا أحد يجاوبني؟.. انظروا فأنا ما زلت أتنفس!!

- عن أي تنفس تتحدثي ياسلا؟؟ انظري لا وجود لكِ اليوم.. أنكِ ميتة بالفعل..

هكذا جاءني ذلك الصوت الغليظ ثم أعقب قوله بضحكات مرعبة، لأصرخ فزعاً:-

- لاااااا أنا هناااااااااااااا

ثم قال بصوت حاد وكأن غضب الناس جميعا في صوته:

- كلا لستِ هنا.. هيا انظري ها هو قبرك والناس جميعا من حولك يبكون لفراقك..

أخذت اركض واركض "اسمعوني أنا هنا.. أنا موجودة ما زلت أحيا".. وصوته يلاحقني في كل مكان "لا مجال لوجودك اليوم".. "أنتِ لست هنا يا سلا.. أنت لست هنا يا سلا!".

لا أري سبيلا لنجدتي فصوته يحاصرني.. أين أذهب لقد انتهيت

ثم استيقظت من نومي وأنا أصرخ أهذا هو ما تريده.. أتريد موتى ستتركني حينها.. أجيبني!!؟ كفاااا فلتصمت.. اليوم أعلن فوزك سيدي فأنا أسيرتك المقيدة بسلاسل خوفها.

يبدو أن هذه الحياة لا يوجد بها أي مكان للراحة فيجب عليَ البحث بنفسي عن أي مكان لأرتاح فيه ثم نظرت عيناي إلى شرفة غرفتي التي لطالما بدأت بها كل قصة في حياتي واليوم على إنهاء القصة بها أيضا فذهبت لداخلها وأمسكت بأسوارها الحديدية.. ولكن لحظة انتظر أنني أقل شجاعة بكثير لفعل هذا.

جلست أبكي بصوت مسموع وأنا أنظر إلى السماء أهذه الحياة التي خلقتني لأجلها.. أهذا كل شيء.. إلى متى.. لا أعلم أين أنت؟؟ .. انجدني يا الله انجدني.

ثم أخذت تمر الأسابيع من بعد ذلك بلا جدوى فلم أعد أشعر بأية راحة سوى في ساعات زياراتي القليلة لمارفي فأنا أحب الحديث معها تشعرني أنني بخير وأن لوجودي رؤية واضحة.. ولكنني مع ذلك قد قررت عدم الذهاب إليها مرة ثانية فقد كانت شديدة القسوة معي في زياراتي الأخيرة لهاا!!

ومن بعد هذا قد استسلمتُ للأمر تماما.. لم أعد أريد معرفة شيء فليحدث ما سيحدث فلا أعد أهتم.. أصبحت لا أخشاه لقد اعتدت عليه في نهاية الأمر.. بل أنني أصبحت انتظره كل يوم..

- ألا تريدين أن تعرفي من أكون ياسلا؟؟

- لا لم أعد أهتم لذلك.

- ولكن اليوم عليكِ معرفتي.. أتذهبي معي؟

- حسنا.

ذهبت خلف ذلك الصوت حتى وصل بي عند مرآة قبل أن يقول:-

- هيا انظري ها أنا هنا.

ما هذاأانها مجرد مرآة!!

- لا انظري جيدا.. أنني هناك بداخلها

- لا أرى سوى نفسي بداخلها.. لا وجود لك

عادت ضحكاته التي كنت أكرهها، قبل أن يقول:-

- حسنا.. وهذا كل الأمر

- لست سوى صرختك التي اعتدتِ كتمانها يا سلا..

ثم استيقظت وفي رأسي الحديث الذي دار بيني وبين مارفى آخر ليلة فعادت ذاكرتي إلى الخلف مستعرضة ذلك الحوار:-

مارفى: أتري أن هذا الصوت هو المشكلة يا سلا في الحقيقة؟!

- نعم هذا صحيح.. فإذا زال فسأكون بخير وسأصبح سعيدة..

- لكنني لا أري هذا

- ماذا تقصدين!!

- أنتِ بخير يا سلا.. ماذا بك؟

- أنتِ تعلمين.. هذا الصوت يريد فهو يريد قتلي يريد أن..

قاطعت جملتي لتسأل وقد تغيرت نظراتها إلى القسوة قائلة:-

- حسنا.. وماذا في هذا يا سلا!؟ إذا كان يريد قتلك لمَ لا تواجهيه لمَ كل هذا الخوف أنه مجرد صوت ضعيف غير قادر على الظهور أمامك.. لا أحد يستطيع هلاكك يا سلا ما لم تسمحي له بذلك أولا..

- لكنني غير قادرة على المواجهة.. أريد المساعدة كيف أتخلص منه..

- حسنا.. فهذا اختيارك بأن لا تختاري شيئا .. أنتِ وحدك من يستطيع فعل هذا.. أنتِ من تقف أمامك يا سلا!!

أنت فقط من يريد هلاكك.

ابتسمتُ بعدما تذكرت حديثها الذي ختمته قائلة:-

فأحيانا تكمن المشكلة بأنه لا يوجد أية مشكلة على الإطلاق.

***

احذر وحاول كتمان أنفاسك قدر المُستطاع، فهي تراقبك الآن.. تلك العجوز ذات الشعر الأشيب.. تشاهد اتساع حدقتي عينيك وتبتسم وتزحف بجسدها ذي الأرجل المقطوعة، تحفر بمخالبها في الأرض.. إنها قادمة.. فقد حان الوقت لرد (الدَين).

أتظنها ترهات؟!.. إلا تعلم أن النفس البشرية أشد ظُلمة ورعبًا من عالم الماورائيات؟!

على أي حال، قد حذرتك.. فإن أفلت من هذه العجوز فلا فرار من تلك الطفلة ذات الحرق بذراعها الأيسر.. ستأتي إليك لتروي لك وتريك ما (حدث في العاشرة ونصف)

الفصل الثاني

حدث في العاشرة والنصف

1- الدَين سلمى حسب الله

2- حدث في العاشرة والنصف شيماء شرف رُميح

1- الدّين

سلمى حسب الله

قبل أن أقص عليكم قصتي أود أن أعرفكم بنفسي أنا حامد مهران كنت أعيش في الريف ولكنني الآن انتقلت للمدينة بحثًا عن العمل وبالمناسبة أنا رجل متزوج، فقد انتقلت أنا وزوجتي إلى منزل في منطقة لا أود ذكر اسمها وغير مسموح لي بذلك حيث إنها تراقبني الآن.

تفاجأت أنا وزوجتي بأن منزلنا يقع بالقرب من المقابر وقد حاولت زوجتي بشكواها المستمرة أن ننتقل لمنزل آخر ولكن ما باليد حيلة، وكأن كل قرش تأخذه يدي مقدر له أن يطير.

مضت ليلتنا الأولى بسلام، وكأنها أرادت أن نطمئن أو أرادت أن تخدعنا ما كنا لندرك أن ذلك هو ما يطلق عليه هدوء ما قبل العاصفة.

في ليلة غامضة وبعد أن وجدت عملًا بتلك البنزينة المشئومة التي لا يميزها شيء سوى أنها قريبه جدًا لمنزلي، وجدت شاحنة نقل كبيرة تسير بسرعة مهولة لتنحرف عن الطريق وتصطدم بسيارة صغيرة.. صدمة هُزت لها الأرض، انقلبت السيارة في الهواء عدة انقلابات ثم رست هامدة على الأرض، بعد أن هُشمت.

وقفت صلدًا أمام ما حدث وكأنني أصبت بشلل تام بجسدي، وبعد أن تحركت قدماي دلفت داخل غرفتي الخاصة في البنزينة وتناولت هاتفي لأتصل بالشرطة.

عدت للخارج واتجهت ناحية السيارة، لعلي أستطيع أن أساعد ذلك المسكين الموجود داخلها، ولكنني لم أجد سوى امرأة عجوز نحيلة الوجه قد أصاب الشيب شعرها بأكمله كانت مغمضة عيونها وفجأة رأيتها تنظر لي وقد جحظت عيناها ويسيل منهما الدماء وكأنها تتوعد لي.

لا تكاد صورتها تفارق مخيلتي حتى الآن.

قاطعني صوت لرجل أجش عن ذلك الموقف المرعب قائلًا لي:

أنت من اتصل بمركز الشرطة أليس كذلك؟!

قلت بصوت متلعثم بسبب ما رأيته قبل قليل مشيرًا للشاحنة دون أن أنظر:

- نعم أنا وذلك هو الحادث وهناك امرأة عجوز بداخل السيارة.

نظر الضابط لأمناء الشرطة ثم عاود النظر إلي قائلًا: أين ذلك الحادث؟!

نظرت للطريق لم أجد شيئا لا الشاحنة ولا السيارة ولا العجوز ذا الرأس الشايب أراد الضابط أن يحتجزني بتهمة البلاغ الكاذب وإزعاج السلطات، فما كان عليَ إلا إنني همست له بأنني أريد أن أقص عليه ما حدث، استجاب الضابط لفضوله القاتل وبعد ما انتهيت شرد الضابط لبعض من الوقت ثم نظر إلي في دهشة قائلاً:

- نعم أنا أتذكر ذلك الحادث ولكن كيف؟!

قاطعته قائلًا: كيف ماذا؟!

وكانت الكارثة في قوله أن ذلك الحادث وقع بالفعل ولكن منذ عام تقريبًا ولكنها لم تكن عجوزا بل كانت امرأة ثلاثينية حتى أن قدميها قطعت في ذلك الحادث وتوفت على الفور.

انصرف الضابط بعدما عفا عني فأخذت هاتفي لأعود للمنزل بعد ذلك اليوم الأسود، علمت زوجتي بما حدث وظلت تشكو وتصرخ بأنها تريد العودة للريف، بعد أن احترق دمي بسبب ما قالته صرخت بها حتى أن عروق رقبتي كادت تنفجر قائلاً:

- أنا فقير لا أمتلك سوى فقري الدائم وذلك المنزل إيجاره رخيص للغاية وتلك البنزينة لا أحد يعمل بها سواي لأنها على طريق سفر وزوارها قليلون من أين آتي لكي بالمال؟، إننا نحتاج للعمل وذلك المنزل بشدة لأجل ابننا الذي تحمليه في أحشائك إننا نحتاج لكل قرش لأجله صدقيني.

ثم ربت عليها مكملًا: فلتصبري قليلًا أرجوكي.

***

استيقظت في سواد ليل عارم علي صوت حفيف شجر مخيف لأجد مقبض باب الغرفة يتحرك وكأن أحدا يريد الدخول وبعدها صدر صوت دق منتظم على باب الغرفة وخيال أحد يقف في الخارج. لم استفق إلا على صوت زوجتي وهي تناديني: حامد.. حامد..

فتحت عيني فوجدت حبات من العرق تنزلق على جبيني ثم نظرت إلى باب الغرفة فوجدته منغلقًا ولا يوجد به شيء.

عاودت بنظري لزوجتي وطمأنتها وقلت أنه كان كابوسًا فعادت للنوم مره أخرى، أشعلت سيجارة وبعد انتهائها سمعت صريرا لباب الغرفة وكأن أحدا يفتحه بوجس شديد شعرت بأن هناك عينين تنظران لي وتراقبني عن كثب.

ارتعبت وأغمضت عيني ودلفت بداخل الغطاء ثم سمعت صوتا ضئيلا وكأنه يهمس لي قائلًا: "لا تقلق سأكتفي بأخذ قلبك فقط".

لم أجد مفرًا من ذلك سوى أن أذهب إلى النوم..

قبل الذهاب إلي عملي ذهبت لصديقي يعمل في مركز الشرطة ويعرف الصغيرة والكبيرة بداخله، انتظرته في الخارج وقلت له ما حدث وأنني أريد نسخة من محضر تلك الحادثة.

مضت ساعة في الداخل ثم عاد بالنسخة المرادة حتى أنه لم يأخذ مني قرشا واحدا لأنه يعلم بظروفي الصعبة.

أنا فقط أردت أن أعرف من هي؟! وماذا تريد مني؟!

***

عدت لعملي وبدأت بالقراءة في أولى صفحات المحضر فوجدت صورتها على غلاف المحضر ولكنها في عمر الثلاثين ولكنني متأكد أنها هي، علمت أنها كانت تعمل دجالة وتقوم بتحضير الأرواح والأعمال، وفي ذلك الحادث كانت في شهورها الأولى من الحمل، وفجأة وأنا أقرأ وجدت بقع دماء تقطر على الورق نظرت إلي السقف فوجدتها بدون أقدام وتزحف على السقف بواسطة أيديها تنظر لي وتقترب مني نعم إنها تقترب الآن.. الآن.. لم أتحمل هول المنظر فسقطت مغشيًا عليَ.

استفقت بعد إغماء دام قرابة نصف ساعة ولكنني وجدت نسخة المحضر ممزقة إلى قصاصات صغيرة على الأرض ليس فقط كذلك بل وجدتها محروقة أيضا، عُدت للمنزل بعد يوم شاق ومرعب ودلفت داخل غرفتي لأذهب في سبات عميق.

استمعت إلي صوت مخالب تحفر في أرض الغرفة بسرعة شديدة، نظرت فوجدتها تقف عند حافة السرير وظهرت أنيابها عندما ابتسمت لي ابتسامة مرعبة قائلة: أصبحت تعرفني الآن.

شعرت أن قلبي سينفجر من كثرة النبض وبصوت مرتعش قلت: لا أريد شيئًا ابتعدي عني فقط.

أشارت بإحدى مخالبها حتى أنني وجدت شعرا كثيفا يكسو أيديها واقتربت مني قائله: سأعطيك مالًا وجاهًا مقابل أن تعيد لي ولدي.. قبل أن تختفي وكأنها لم تكن.

مضى قرابة شهرين منذ رؤيتها لي في ذلك اليوم أحيانًا كنت أراها في المنزل وأسمع صراخها وهمساتها في نومي.

ولكنني أصبحت لا أبالي بها كنت ارتعب بالفعل فمن منا قد رأى شبحًا ولم يخف؟!، ولكنني لم أعلم أنني سألجأ إليها في يوم من الأيام "سألجأ لمن تريد نزع قلبي فقط".

فصلوني عن عملي في البنزينة لسبب غير معروف حتى أنني تفاجأت بذلك، بحثت عن عمل في أكثر من جهة ولم أجد، كانت لدي مصاريف كثيرة من أهمهم ولادة زوجتي وملابس ولدي الصغير.

احتجت للمال بشدة فلم يعد معي مالا حتى للقمة عيش صغيرة حتى أن زوجتي أصبحت ضعيفة وريقها دائمًا جافا.

اتصلت بصديقي في مركز الشرطة لأسأله عن قبر تلك المرأة وأجابني عن ذلك المكان.

تمتمت في سري قائلاً: لم تعد تأتيني إذًا سأذهب لها الآن.

وكأنها تعلم عن زيارتي وجدتها تزحف بجانب قبرها تجاهي وتحدق لي بعينين واسعتين يظهران بكحل أسود غير عادي، وكأنها أنهت قلم الكحل فقط علي عينيها، أدارت رقبتها حتى كدت أستمع إلي كسر عظامها ثم عاودت النظر إلي قائله: عُدت إلي لأنهم فصلوك عن عملك صحيح؟!

إذًا هي من قامت بذلك لألجأ إليها

ثم تابعت قائلة: لا تنظر خلفك

نظرت خلفي فوجدت زوجتي جالسة على شكل القرفصاء يملأ الدم أيديها وأرجلها، نعم كأنها تلد

وفجأة أخذت تجز بأسنانها على لحم ابننا الرقيق ومن ثم ابتلعته

عُدت لأرى العجوز فوجدتها في وجهي مباشرة قائلة: أريد ولدي

وفجأة هدأ المكان واختفى كل شيء ولكنني وجدت حقيبة ع قبرها توجهت ناحيتها بوجس شديد وفتحتها فوجدت أموالا كثيرة أغلقتها ووضعتها في قبضتي بإحكام وهرولت للخارج.

***

مضى تقريبًا أربعة أشهر أصبحت فيها أملك منزلًا جديدًا وسط المدينة وأصبحت أدير أعمالًا كثيرة، لم تعد تظهر لي بتاتًا حتى أنني لم أوفي بوعدي معها وكيف أوفيه؟! كيف أعيد مضغة دم ماتت في جسد امرأة متوفية وبات الرمل يكسوها؟، ظننت أن المال سيتلاشى فور ابتعادي عن ذلك المنزل البغيض ولكن الحقيقة أنني بدأت في استثماره.

باتت قصة مرعبة حدثت لي في الماضي وانتهت، أحضرت زوجتي مستلزمات طفلنا ولم يكن علينا سوى انتظاره فقط.

ذهبت إلى حمام غرفتي لكي أحلق لحيتي الكثيفة وفجأة وجدت زجاج نافذة الحمام قد حُطم وأصبح فتاتا صغيرة كسكر أبيض، تساءلت هل يوجد أطفال يلعبون في الطريق حتى الساعة الثالثة صباحا.. ولكن قطع سؤالي مصباح الحمام الذي ارتعشت إضاءته فجأة.

نظرت لمرآة الحمام غير مبال فوجدت عبارة مكتوبة بالدماء "لقد وجدتك".

زاد ارتعاش الضوء حتى انفجر المصباح شعرت وكأن أحدا ينظر لي وهمسات صغيرة تسمعها أذني وهناك من يتجه نحوي نعم أسمع خطواته، خرجت بسرعة فوجدت زوجتي مكتفة الأيدي في زوايا السرير.

وتصرخ وتبكي نعم إنها تلد الآن!!، لم أسألها عن الشخص الذي كتفها، لم أسألها لأنني أعلم من هي.

***

حملت زوجتي وأحضرت مفاتيح سيارتي لأصل إلى المشفى كنت أريد الدخول معها ولكن منعني الطبيب وجعلني أنتظر خارج غرفة العمليات، بعد قرابة النصف ساعة وجدت شخصا يقترب مني قائلًا: أنت ماذا تفعل هنا؟!

بصوت مرهق قلت: أنتظر زوجتي التي تلد في الداخل

ثم أكملت بنبرة مرجوة: أرجوك أريد أن أطمئن عليها في الداخل

نظر إلي في دهشة وعجب من أمري: أنا الطبيب المسئول عن ولادة زوجتك!!

أخفق قلبي بشدة وانقبض وبصوت مبحوح قُلت: إذًا من في الداخل؟

دلفت الممرضة مهرولة للداخل ثم عادت بوجه مقلق وصوت حزين ظاهر قائلة: البقاء لله لقد توفت زوجتك الآن.

وقبل أن أتفوه بكلمة وجدت العجوز تحمل ولدي في لفافة قماش واختفت عبر الجدار.

صرحت بتلك القصة لطبيب نفسي لم يصدقني ولو حتى بالكذب فاحتجزني في مصحة عقلية وبعدها علمت أن أموالي ومنزلي وكل شيء قد اختفى، هل أنا مجنون؟ نعم لقد جُننت بالفعل وقررت أن أكتب قصتي قبل أن انتحر لعلها تصل إلى أحدهم ويُصدقني.

خاصة عندما رأيتها بالأمس وهي تحمل ولدي قائلة بصوت مرعب: لقد كنت مدينًا لي وكان عليك أن تسدد دِيّنك.

***

2- حدث في العاشرة والنصف

شيماء شرف رُميح

كانت تقف أمام المرآة تلك الثلاثينية، لترتب خصلات شعرها المتمردة تتأمل عينيها تائهة في محيطها الأزرق حين قطع شرودها دقات على باب الغرفة تلاها دخول والدتها التي لا يستطيع الناظر التفريق بينها وبين ابنتها رغم فارق السن بينهما.. اقتربت الأم وعلى شفتيها الابتسامة الحانية قبل أن تبدأ بالحديث:-

- أنتي ماشية دلوقتي يا مايا؟!

التفتت لها تلك العشرينية وهي تضع خاتم الزفاف بإصبعها قبل أن تقول:

- أيوة يا ماما أنا أتأخرت عليهم وبقالي كام يوم عندك

خرجت مايا من الغرفة مسرعة وهي تتجه إلى باب المنزل ثم إلى سيارتها لتنظر لوالدتها وتودعها وقبل أن تنطلق أوقفتها والدتها قائلة:

- استني طيب لبكرة أنا خايفة عليكي تسوقي العربية دلوقتي الساعة 10ونص يا بنتي والدنيا ليل خالص خليها بكرة أحسن

ابتسمت مايا لوالدتها وهي تمسك يدها من داخل سيارتها لتطبع قبلة على يدها قبل أن تقول:

. متقلقيش يا حبيبتي أنا حافظة الطريق وبعدين دي مش أول مرة يعني.

لوحت بيدها لوالدتها وبادلتها والدتها أيضا التحية وانطلقت مايا بالسيارة إلى منزلها، كان الطريق المؤدي إلى منزلها مخيفًا وموحشًا ولكنها معتادة عليه فهي تقطن هناك منذ أكثر من 9 سنوات بقليل.

كانت تقود وهي شاردة الذهن قليلا.. لفت انتباهها وقطع ذلك الشرود فتاة صغيرة لا يتعدي عمرها الثماني سنوات ترتدي تلك البدلة المدرسية وتحمل حقيبتها.. فزعت مايا وضغطت مكابح الفرامل بقوة، فالتفت السيارة بسرعة لتنحرف عن الطريق قليلا أوقفت السيارة فجأة، لتنظر إلى الطريق اتجاه تلك الفتاة لتجدها تقف ساكنة لا تتحرك وكأنها تمثال قد حفر كتذكار لمناسبة ما.. كانت تلك الصغيرة تنظر لمايا نظرات لا تحمل أي معنى، فقط الصمت اللامبالاة نظرات عينين يسكنها اللاشيء.

هبطت مايا من السيارة واقتربت منها بخطوات حذرة ثم توقفت أمامها مباشرة لتنزل بجسدها إلى مستوى طول تلك الصغيرة.. وضعت يدها على أحد كتفيها قائلة:

- واقفة هنا ليه يا جميلة.. أنتي تايهة ولا أية؟؟

تحولت نظرات الفتاة من الجمود إلى الخوف والرجاء، تجولت مايا بعينيها متفحصة ملابس تلك الفتاة المهترئة، شعرها الأشعث وحقيبتها المتسخة وذلك الوجه الذي يوحي لك بأنه لم يضع عليه الماء منذ الأزل، لكن أكثر ما لفت انتباهها هو ذلك الحرق في ذراعها الأيسر، ولكن رغم ذلك المنظر وتلك الهيئة الغريبة للفتاة رأفت مايا بحالها، فسألتها مرة أخرى بصيغة مختلفة:

- فين بيتك يا حبيبتي وليه واقفة كدة؟؟

أخيرا رفعت رأسها قليلا لتنظر بأعين تشع براءة وتحدثت بصوت هادئ يعلن عن أحبال صوتية رقيقة قائلة:

- أنا ساكنة قريب من هنا.. وبابا وماما أتأخروا عليا وأنا كنت مستنياهم.. وبيتي آخر الطريق ده

ابتسمت مايا في محاوله لبث الطمأنينة بروح الفتاة قبل أن تتحدث قائلة:

- تمام يا حبيبتي ده نفس طريق بيتي

أمسكت بيد تلك الصغيرة وصولًا إلى سيارتها، وبدأت بالقيادة ولا تزال الصغيرة رافعة راية الصمت، حتى عندما حاولت مايا معرفة اسم الفتاة أو عمرها لم تجب وكأنها لا تسمع، آثرت مايا الصمت بعد تلك المحاولة وقد بدأ الخوف في التسلل إلى قلبها لاسيما وهي تراقب نظرات الصغيرة المقلقة.

كانت تقود السيارة وهي شاردة الذهن تفكر في زوجها وابنها لقد اشتاقت لهما حقاً، أفاقت من شرودها على صراخ تلك الفتاة التي تغيرت نبرة صوتها وكأن أحبالها الصوتية أصبحت أغلظ فصرخت قائلة:

: أقفي هنا

أوقفت مايا السيارة ناظرة لتلك الصغيرة بتلك النظرات النارية التي تكاد أن تخترق جسدها، وهي تلهث من أثر الفزع إلى سببته لها الفتاة؛ لتتحدث بنبره يملؤها الفزع:

- فيه أيه بتصرخي ليه كده

نظرت الفتاة من نافذة السيارة وعادت نبرة صوتها الهادئ للحديث لتقول:

- أنا وصلت البيت خلاص

التفتت مايا حولها فوجدت أنها تقف بالسيارة في تقاطع لطريقين، أحدهما يقود إلى منزلها والآخر طريق مهجور، فأعادت بنظرها إلى الفتاة متسائلة بدهشة:

- هنا فين يا بنتي؟!

لم تجبها الفتاة بل فتحت باب السيارة وركضت صُدمت من تصرف تلك الصغيرة وقررت الركض خلفها سريعا ولكن بمجرد هبوطها من سيارتها.. لم تجد تلك الفتاة.. وكأنها تبخرت.. لا بل كأنها لم تكن.

ظلت تنظر حولها شعرت بقبضة تعتصر قلبها، ارتجفت أطرافها فزعاً، ركضت إلى سيارتها وارتادتها لتقود بأقصى سرعتها إلى منزلها.

***

بعد مرور أكثر من نصف ساعة قيادة لبُعد الطريق وصلت مايا وأخيرًا إلى منزلها أوقفت سيارتها في جراج المنزل ثم اتجهت إلى الباب لتفتحه ببطء خوفا من أن توقظ زوجها أو ابنها اتجهت وهي تستند على أطراف أصابع قدميها إلى غرفة المعيشة متسللة كأنها لص ولكنها توقفت فجأة عندما وجدت شبحا لظل شخص طويل تراه من خلال إضاءة القمر التي تطل إلى تلك الغرفة.. اقتربت مايا من زر الإضاءة لتضغط عليه فتبتسم عندما وجدته جالسا أمامها لتتحدث بسعادة قائلة:

- آدم؟! أنت أيه مصحيك لحد دلوقتي يا حبيبي؟

نظر لها بشوق وبابتسامة جذابة تكشف عن أسنانه البيضاء لترتسم هاتان النغزتان على وجنتيه قبل أن يجيبها بصوته العذب:

- مستني مراتي اللي أتأخرت

ابتسمت مايا واقتربت منه واحتضنته بشدة وهي تقول:

- معلش يا آدم أنا بعتذر بس معرفتش أسيب ماما إلا ما تكون كويسة.

ابتسم آدم بحنان وهو يربت على كتفها قائلاً:

- طيب خلاص مش زعلان المهم أنتي اتعشيتي؟!

- اه الحمد لله.

قالت تلك الجملة وهي تتلفت حولها لتسأل آدم:

- هو يوسف فين؟

نظر لها متعجبًا من سؤالها قبل أن يجيبها:

- نايم طبعا عشان مدرسته أنتي ناسية ده بينام من الساعة 7.

. اه صحيح معلش يا حبيبي بس الإرهاق مش مخليني مركزة.. هو واحشني أوي أنا هطلع أشوفه.

ذهب آدم إلى غرفته وتوجهت مايا إلى غرفة يوسف دخلت الغرفة ببطء كي لا توقظه اقتربت من ذلك الصغير لتطبع قبلتها بحنان بالغ علي جبهته. تنظر له وقلبها يتمزق لتسأل نفسها:

. كيف وصل بك الحال إلى هنا يا يوسف؟!

فرت من عينها دمعة هاربة خائنة كانت مقيدة بداخل مقلتيها.. قبل أن تعيد مسائلة ذاتها:

. كيف أصبح صامتا قليل الكلام لم يعد يلهو أو يضحك لا يتكلم إلا نادرا لا تعرف السبب ولكنها حتما ستحاول أن تعيد ابنها كما كان.

قبلته مرة أخرى قبل أن تعود إلى غرفتها لتبدل ملابسها.. اقتربت من آدم لتنام بجواره ابتسمت له مايا متسائلة:

- هي الساعة كام دلوقتي.

نظر آدم إلى الساعة ثم ابتسم واتسعت ابتسامته قائلا:

. 10ونص يا حبيبتي

- تمام اظبطلي المنبه على الساعة 6 متنساش

. حاضر يا مايا.. تصبحي على خير.

***

في صباح يوم جديد على ذلك المنزل استيقظت مايا على صوت المنبه، نهضت من فراشها وبدلت ثيابها بعد أن ألقت نظرة سريعة على زوجها النائم ثم ذهبت لتقوم بتجهيز الفطور لزوجها وابنها قامت بتحضير الطعام ومن ثم نادت بصوت مرتفع عليهما: يووسف.. اااآدم أنتوا لسه نايمين؟

جاءها صوت آدم وهو ينزل من الدرج :

- خلصنا يا حبيبتي جينا أهو.

نزل آدم ويوسف وجلسوا ثلاثتهم ليتناولوا الطعام سويًا وبعد أن أنهوا الطعام قامت مايا بتوصيلهما إلى باب البيت وقامت بتوديعهما، عادت مايا إلى المنزل لتقوم بأعمال النظافة كأي ربة منزل وحينما كانت تقوم بهذا سمعت صوت طرقات على باب المنزل ذهبت لترى من الطارق الآن!

وعندما فتحت الباب كان الضيف هو كارلا أقرب الصديقات لمايا وأيضا الصديقة الوحيدة لها صرخت مايا بسعادة غامرة عند رؤيتها قائلة:-

- كارلا..!! وحشاني أوي.

ابتسمت كارلا وبادلت العناق معها قائلة:

- أنتي كمان وحشاني أووي.

ابتعدت مايا قليلا لتعطي مساحة لكارلا للدخول إلى المنزل، جلستا بغرفة المعيشة ليتحدثا في الشئون النسائية التي لا تنتهي، تجاذبتا أطراف الحديث لأكثر من ساعتين، لم يكن للوقت ثقل يُذكر كعادة الأوقات السعيدة، حتى نظرت كارلا إلى ساعة يدها مصدرة شهقة بسيطة لتقول:

- أنا أتأخرت أوي كد ه الوقت سرقنا.

نظرت لها مايا بتوسل وهي تتساءل:

- أنتي ماشية دلوقتي..؟

- أيوة بس أكيد هجيلك تاني أنا هقدم أجازة شهر وصدقيني هجيلك تاني.

ابتسمت مايا ابتسامة حزينة شعرت بها كارلا لتردف:

- يا مايا والله هجيلك تاني أنا هقدم أجازة شهر وصدقيني هجيلك تاني.

ابتسمت مايا وأخبرت كارلا أنها تفهمت موقفها الآن وأنها حتما ستنتظرها تأتي لها مرة أخرى، أوصلتها إلى باب المنزل ثم عادت مرة أخرى إلى المنزل لتنهي الأعمال التي كانت تقوم بها، ثم جلست علي الأريكة لتشاهد التلفاز حتى طغى عليها الملل الشديد فقررت أن تخرج إلى حديقة المنزل لتسير فيها قليلا.

كانت تفكر بزوجها وابنها كم هما رائعان كانت تبتسم عندما تتذكر بعض الذكريات معهما كم تهيم بهما، كانت تحدث نفسها بصوت مسموع نسبيا قائلة:

- يا رب متحرمنيش منهم هما كل حياتي أنت عارف أن أنا من غيرهم ولا أي حاجة حياتي ملهاش طعم من غيرهم.

قطع حديثها مع نفسها صوت شخص ما يركض بالحديقة، صوت واضح كوضوح الشمس هي حتما لا تتوهم هناك شخص ما معها، سارت بخطوات بطيئة اتجاه الصوت وجسدها يرتجف فكلما تقترب كلما ارتفع ذلك الصوت وأضحى واضحا أكثر وأكثر، سارت حتى خرجت إلى الحديقة لتقع عينها على ما لم تصدقه عيناها،

توقفت مايا فجأة عن الحركة شعرت بانقباضة في قلبها لم تعد تسمع صوت أنفاسها ولا تشعر بدقات قلبها، إنها ذات الفتاة الصغيرة بنفس الملابس.

كان الخوف والصدمة يكللان لسانها، وساد الصمت حوالي الدقيقة قبل أن تتجرأ مايا وتقطع صمتها أخيرا، فسألت وبصوت مرتجف:

. أنتي؟! إزاي دخلتي.. بتعملي أيه هنا؟!

خطت بخطوات يشوبها الحذر مقتربة من تلك الفتاة وبمجرد وصولها إلى مكانها سمعت صوت زوجها ينادي عليها، فالتفتت خلفها لتراه يقترب منها نظرت مرة أخرى إلى تلك الصغيرة ولكنها اختفت مثلما اختفت من قبل وتبخرت للمرة الثانية على التوالي.

ظلت مايا ساكنة لا تتحرك من الصدمة حتى أفاقت على صوت آدم وهو يقف بجانبها ليضع يده على شعرها قائلاً:

- أية يا مايا .. كل ده بنادي عليكي.. بتعملي أيه هنا؟!

حاولت اصطناع الابتسامة قدر الإمكان فتحدثت بوجه مشحوب قائلة:

- أنا.. أنا بشم هوا؟؟ معلش مسمعتكش.

- تمام طيب يلا لأن هموت من الجوع.

- بعد الشر عليك.. هو يوسف فين؟!

- يوسف في أوضته بيغير هدومه أول ماجينا دخل البيت على طول.

دخلا المنزل وذهبت مايا لتقوم بتحضير الطعام وهي شاردة فيما حدث، وبعد أن أنهوا تناول الطعام جلس آدم ويوسف بغرفة المعيشة بينما كانت مايا تتنقل هنا وهناك بين الغُرف لتتأكد من نظافة المنزل

حتى اعترض آدم على تصرفاتها تلك ليخبرها أن المنزل نظيف ولا يحتاج كل هذا المجهود.

خيم الليل على ذلك المنزل أتى الليل بمخاوفه فمايا كانت جالسة تفكر في تلك الفتاة الصغيرة وكيف تظهر وتختفي بذلك الشكل مرعب.

كانوا يجلسون ثلاثتهم أمام التلفاز آدم بجانب مايا ويوسف يجلس على الأرض صامتا أمامهما قبل أن يبدأ آدم الحديث:-

- مايا سرحانة في أيه؟؟

- ها.. ولا حاجة يا حبيبي أنا بس..

وقبل أن تكمل جملتها انقطع نور المنزل لتزفر هي ضيقًا وهي تردف:

- يادي القرف ده وقته

- متقلقيش هقوم أجيب شمعة وكبريت بعدين الساعة لسه10ونص مش نص الليل يعني

هب آدم من مكانه بعد أن قبلها على وجنتها وذهب باحثًا عن بعض من الشموع، وقفت هي الأخرى واتجهت إلى النافذة لتجد أن جميع منازل الحي مضاءة إلا منزلها، فنادت بصوت مرتفع:-

- آدم شوف كبل النور بتاعنا شكله فيه حاجة

لم يرد على ندائها، فنادت على صغيرها قائلة:

- يوسف حبيبي تعالى أقف جمبي علشان الضلمة

لكنها لم تجد منه الرد فالتفتت لتنظر إليه ولكنها لم تجده.. هرولت لتمسك بهاتفها وأضاءته، هبطت الدرج مخترقة لذلك الظلام ولكنها لم تجدهما، خرجت إلى الحديقة بأعين فزعة بدأت الدموع بمعرفة الطريق إليها وما زالت تنادي:

. يوسف.. آدم

اتجهت مايا إلى الجراج وقلبها يزداد خفقانا فكانت الصدمة.. لم تجد سيارة آدم!!

أمسكت بهاتفها وبدأت بالاتصال بزوجها ليأتيها ذلك الصوت الرتيب ليخبرها بانغلاق الهاتف، وصل ذعرها إلى ذروته فأعادت الاتصال مرات ومرات.. دون جدوى، حاولت طمأنة نفسها بأنهما قد ذهبا إلى والدتها.. وظلت تُثبت ذلك الظن بعقلها وتتساءل كيف لآدم أن يخرج من المنزل دون أن يخبرها أمسكت بهاتفها من جديد وأحضرت رقم والدتها.. ليأتيها نفس الرد.. شعرت بأن الأمر يزداد سوءًا وما زالت تنادي عسى أن تكون إحدى مداعبات زوجها السخيفة، وأخيرًا قررت الذهاب فركبت سيارتها تقودها بأقصى سرعة تجاه منزل والدتها تمني النفس بما يرفضه العقل، وصلت إلى منزل والدتها لتجد نور منزلها منقطع هو الآخر.. هبطت من السيارة واقتربت من باب المنزل وظلت تطرق الباب بعنف وبشدة ولكن لم يجبها أحد.

عادت مايا إلى السيارة الرعب ينبض بقلبها، أين ذهبوا جميعا قادت بسرعة جنونية إلى منزلها لعلها تجدهم عادوا وعندما عادت إلى المنزل وجدت أضواء المنزل كلها مضاءة.

ركضت إلى الداخل لتبحث عنهم مرة أخرى ولكن ليس هنالك من جديد فما زال المنزل خاليا إلا منها ظلت تبكي وتنوح وتنادي ولكن بلا جدوى.

نما إلى أذنيها صوت أنفاس لاهثة مصدرها دورة المياه فتوجهت إليها بأعين جحظت بفعل الفزع، وضعت يدها على مكبس الكهرباء لتضيء دورة المياه.. ولكنها أيضًا خاوية.. نظرت إلى المرآة برعب لتعقد حاجبيها ذهولاً، اقتربت أكثر من المرآة علها تكون خيالات لا أساس لها من الصحة.. ولكنها تأكدت من صحة ما رأت.

شيء غريب وغامض يركض، نعم إنه يركض بداخل مقلتيها اقتربت مايا من المرآة وهي تشعر بأنها تختنق خوفا وذعرا مما ترى فتلك الصغيرة بمقلتيها وكأنها تركض بالبرية.

صرخت مايا بشدة راكضة إلى الخارج لتتعثر قدمها بشيء ما وترتطم رأسها بالأرض بقوة لتسقط مغشي عليها.

***

مر وقت حين بدأت مايا بفتح عينيها ببطء فوجدت نفسها نائمة على سريرها ترتدي بيجامة نومها.. ووجدت آدم يضع يده على رأسها فهبت مفزوعة واحتضنته بشدة وظلت تبكي وهي تتحدث:

- أنا كنت خايفة أووي يكون حصلكم حاجة اختفيتوا فين أيه اللي حصل.. أيه اللي بيحصل أنا مش فاهمة حاجة؟!

نظر لها آدم باستغراب قائلا:

- مين اللي راح فين.. وأيه بيحصل؟!

. أنت ويوسف أما النور قطع.. اختفيتوا وملاقتكمش دورت عليكم ورحت عند ماما كمان ملقتهاش ولا لقيتكم وقعدت اتصل بيك موبايلك خارج الخدمة

ضحك آدم بشدة وصلت حد القهقهة وسط ذهول مايا، قبل أن يتمالك أعصابه قائلاً:

- لا بجد كل ده فالدقيقة اللي سيبتك فيها ده حلم طويل أوي

- حلم.. حلم أيه؟!! بقولك أنتوا اختفيتوا

ضم آدم مايا إليه بشدة وهو يهدئ من روعها قائلاً:

- يا روحي أنا جبت الشمع ورجعت لقيتك نايمة على الكنبة رايحة فالنوم شلتك ونيمتك في الأوضة

كانت مصدومة مما تسمع لم تتكلم لم تسأل اكتفت فقط بالصمت ليستكمل هو الحديث قائلاً:

- المهم يلا ننام عشان نصحا بدري الساعة دلوقتي 10ونص

***

نامت مايا وهي تضم آدم بشدة ليمر الليل ويأتي الصباح وكالعادة استيقظت مايا لتجهيز الإفطار لعائلتها الصغيرة وبعد الانتهاء من الفطور المُعتاد توجه آدم ويوسف وودعاها ليغادرا المنزل، بدأت مايا بحملتها الخاصة بتنظيف المنزل والتي لا تنتهي أبدًا ولكنها كانت شاردة الذهن فيما حدث معها أمس هل كان حلمًا مخيفًا حقا كما أخبرها آدم؟

قطع تفكيرها صوت جرس المنزل ذهبت لترى من القادم فتحت الباب لتجد كارلا أمامها تتحدث ببهجة:

- صباح الخير يا هانم

وبعد عدد من القبلات والضمات دخلت كارلا إلى المنزل لتجلس مع صديقتها تتحدثان كعادتهما إلا أن كارلا لاحظت شحوب وجه صديقتها.. فتساءلت بقلق:

- مايا يا حبيبتي أنتي تمام؟

- اه تمام؟!.. ليه؟!

- وشك بهتان كدة كأنك مبتاكليش أو بتسهري

- اه.. لا ده تلاقيه من شغل البيت أنتي عارفة أنا بكره البيت اللي مش نضيف

هزت كارلا رأسها وهي تتصنع تفهمها لأسباب صديقتها، ولكن بالحقيقة كانت مذهولة فكلام مايا لا ينطبق على هيئة المنزل الذي تشعر كما لو أنه لا يقطنه أحد منذ بداية الخليقة.. فالعناكب تتخذ من الأركان

بيوتًا.. وتتناثر الأتربة على جميع قطع الأثاث بالمنزل، ولكنها اكتفت فقط بتلك الابتسامة المجاملة وهي تقول:

- ربنا يقويكي .. لو احتجتي حاجة قوليلي

ظلت الأحاديث تمتد عن ذكريات الطفولة حتى انقضى وقت طويل ومن ثم استأذنت كارلا بالذهاب على وعد بلقاء قريب.

خرجت كارلا من المنزل بعد أن قامت مايا بتوديعها واتجهت لسيارتها وعندما بدأت في الانطلاق بالسيارة توقفت فجأة عندما نادى عليها أحدهم لتتوقف وهي تنظر للماثل أمامها باستغراب

***

في المنزل كانت مايا شاردة في كل ما يحدث لها.. قطع تفكيرها وحديثها مع ذاتها صوت تهشم في الحديقة.

هبت مفزوعة تركض تجاه الصوت توقفت مايا.. وكاد نبض قلبها أن يتوقف عندما رأتها مرة أخرى.

تلك الفتاة واقفة في نفس المكان تكسر بعض الأطباق والأكواب القديمة التي تراها لأول مرة بمنزلها، نظرت مايا لها وكادت تنطق ولكن لُجم لسانها فلم تستطع أن تتحدث نظرت تلك الفتاة لمايا وهي صامتة جامدة لا تتحرك.

حاولت مايا التحدث ولكن الصراع كان بين جسدها الذي لا يستجيب وعقلها الذي يعطي الإشارة ولا يستمع له.

صراع دام لأقل من الدقيقة ليعلن العقل عن انتصاره وتتحدث أخيرا وهي خائفة صارخة:

- أنتي.. أنتي تاني؟ أنتي مين وعايزة أيه ردي عليا..

لم تجيبها الفتاة بل ظلت صامتة.. اقتربت منها مايا وعند اقترابها شعرت بالدوار فسقطت أرضا مغشي عليها.

فتحت عينيها ببطء لتجد ذلك الظلام الدامس الذي يحيط بها قامت مستندة إلى الأرض لتجد نفسها بحديقة المنزل وبالطبع اختفت الفتاة واختفت حتى الأطباق، تأملت الأجواء، لقد أتي الليل، ولكن لحظة؟؟!.. أين زوجها؟!.. لماذا لم ولمَ النور منقطع عن المنزل مرة أخرى؟!

ركضت سريعا إلى الداخل تبحث عن زوجها وابنها ولكنها وجدت المنزل خاويا، الم يأتوا بعد أين هم؟!.. أمسكت مايا هاتفها لتتصل بآدم ولكن الهاتف مغلق أيضاً، نظرت إلى الساعة فوجدتها الـ10والنصف كيف لم يأتوا بعد..؟؟ اتصلت به مرارا وتكرارا ولكن دون جدوى، خرجت مهرولة من منزلها متخذة قرار اللجوء إلى الشرطة، ارتادت سيارتها لتقودها بأقصى سرعتها متجهة إلى ذلك التقاطع الذي يؤدي بها إلى للمدينة، ولكنها ضغطت مكابح الفرامل فجأة عندما وجدت تلك الصغيرة أمامها مرة أخرى.. توقفت مايا لتنظر لها متوعدة فحتما هي السبب، نزلت من السيارة لتقترب من تلك الفتاة الصغيرة التي ركضت بمجرد أن اقتربت مايا منها، ركضت مايا خلفها وهي تسب وتلعن وتتوعد، وفجأة وقفت الطفلة أمام أحد المنازل غريبة الشكل والتي لم تره "مايا" من قبل رغم مرورها بنفس الطريق.. واختفت الطفلة داخل جدران ذلك المنزل.

توقفت مايا لاهثة تنظر إلى ذلك المنزل منذ متى وذلك المنزل هنا؟! هي تعلم أن هذا الطريق مهجورا لا يوجد به سوى بعض الأشجار والمزارع الخاصة ليس به أي مبان!

اقتربت من المنزل والتفت حوله لتنظر من نافذة ذات زجاج محطم، لتجد تلك الصغيرة جالسة على طاولة طعام تأكل وهي تبكي ممسكة بصورة تضمها إلى صدرها وتتكلم مع تلك الصورة بصوت غير مسموع دخل عليها رجل أربعيني وعندما رأته اشتدت يدها على الصورة وكأنها تتشبث بها، اقترب منها أكثر فأكثر ثم ضمها إليه بشدة لتدفعه هي صارخة به بأن يبتعد عنها.

ركضت تلك الصغيرة إلى الاتجاه الآخر من المنزل وخلفها ذلك الأربعيني، كانت مايا تشاهد كل تلك الأحداث من خلف الزجاج خارج المنزل ولكنها وجدت نفسها في أقل من اللحظة تقف بداخل المنزل وكأنها مُسيرة، وقفت أمام تلك الطاولة، لم تعد خائفة لم ترتعد فهي تريد أن ينتهي كل شيء مالت بجسدها إلى الأرض عندما وجدت تلك الصورة التي كانت تضمها الصغيرة ملقاة بجانب الطاولة، أمسكتها بكلتا يديها.. وبدأت بالنظر إليها قبل أن تصرخ فزعا:

. أيه.. أيه ده .. دي صورة ماما؟!

قطع صدمتها صوت ذلك التحطم ركضت اتجاهه بعيون مليئة بالدموع لترى ذلك المشهد مرة أخرى تلك الصغيرة تحطم بعض الأكواب والأطباق وأمامها ذلك الرجل يصرخ بأعلى صوته اعتراضا على ما تفعل قائلاً:

. اهدي مينفعش كده إحنا لازم نحكي ونتناقش

لترد الطفلة عليه وما زالت تحطم الأكواب والأطباق وهي تصرخ:

. أنت السبب أن هي تموت لولا أنك طردتها مكنتش ماما عملت حادثة

أمسك الوالد بذراع الطفلة وهو يصرخ قائلاً:

- افهمي مامتك هي اللي قررت تمشي مش أنا اللي طردتها.. صدقيني يا مايا

سمعت مايا تلك الكلمات لتتسع حدقتا عينيها بصدمة بعد سماعها لاسم الصغيرة المماثل لاسمها.. وبدأت بالتساؤل.. هل أنا..؟؟.. هل والدتي.. ماتت!

نظرت مايا لتلك النسخة المصغرة منها لتتفاجأ بأنهما أصبحتا خارج المنزل سويا، نظرت إلى المنزل لتجده يحترق بالكامل.. وداخله والد مايا الصغيرة.. التي ابتسمت ابتسامة انتصار وهي تقول:

- هتوحشني أوي يا بابا

نظرت الفتاة إلى مايا وأشارت لها على ذراعها الأيسر لتنظر مايا إلى ذراع الطفلة لتجده يحترق دون أن تظهر أي ملامح للألم.. وقبل أي رد فعل منها أشارت الطفلة إلى ذراع مايا الأيسر.. نظرت له مايا لتجده يحترق دون أي ألم هو الآخر، لتصرخ مايا الكبرى بالصغرى وهي على حافة الانهيار قائلة:

- أنا مقتلتوش مقتلتوش.. الشمعة وقعت مني في أوضته غصب عني وخفت.. خفت لما لقيت النار بتاكل كل اللي في البيت، أنا مقتلتوش.. أنتي كدابة.. كداااابة.

ظلت تصرخ بشدة وتركض حتى سقطت مغشي عليها.

***

شكلها مرهق جدا إحنا عملنالها تحاليل شاملة وظهر فيها أنها عندها فقر دم وأنيميا شديدة جدا غير أن هي متعرضة لانهيار عصبي حاد.

نظرت له كارلا بعيون تكاد أن تصرخ من الحزن، قبل أن توجه حديثها للطبيب قائلة:

- شكرا يا دكتور.. بس ممكن أعرف هي هتفوق إمتى؟؟

- يعني ممكن فخلال 10 دقايق

- شكرا لحضرتك مرة تانية

فتحت عيناها بتعب وإرهاق واضحين كاد رأسها أن ينفجر من الألم نظرت حولها فوجدت أنها محاطة بالأبيض من كل مكان حتما هي ليست فالبيت نظرت أكثر حولها فوجدت الممرضات والطبيب وكارلا أيضا كادت أن تتحدث ولكنها تذكرت ما حدث لتنظر إلى يديها فوجدت أن زراعها

الأيسر به حرق قد ضُمر كأنة منذ سنوات. صرخت مايا بكل قوة وبدأت أطرافها بالتشنج، فاقتربت منها كارلا بعيون باكية صارخة:

- مايا اهدي اهدي

- أنا مقتلتوش دي حادثة صدقوني حادثة

اقترب منها الطبيب موجها كلامه لمساعدته:

- هاتيلي حقنة المهدئ بسرعة

تناول الطبيب الحقنة وقام بإعطائها لمايا التي كانت ترفض الانصياع بكل الطرق حتى بدأ المهدأ بالجريان بعروقها وأغمضت عينيها باستسلام شديد.

نظر الطبيب إلى كارلا موجها كلامه لها: ممكن أعرف هي كده من إمتى؟

- هي كده بقالها سنة ونص.

- سنة ونص؟! طيب أيه موضوع الساعة عشرة ونص ده؟ طول ما هي نايمة بتقول الساعة لسه مجتش 10 ونص؟!

نظرت كارلا إلى الطبيب بأسى.. قبل أن تقول:

- ده الوقت اللي مات فيه زوجها وابنها من سنة ونص لأن مبقتش كده غير من بعد وفاتهم كنت فاكرة أن دي مرحلة وهتعدي بس للأسف ظني مش فمحله.. عرفت اللي حصل لما كنت عندها فمرة واحدة جارتها وقفتني وسألتني على علاقتي بمايا وأما عرفت أن مالهاش غيري حكتلي على كل تصرفاتها الغريبة لما لقتني مصدقتش اخدتني علشأن اشوف مايا بتعمل ايه من بعيد واتصدمت لما لقيتها بتشد كوبس الكهرباء وبتفصل النور عن البيت. بس آخر حاجة ممكن اتخيلها أنها ترجع بيت والدها تاني وكمان أنها كانت قاعدة كام يوم هناك ده مهجور من اكتر من 20سنة.

هل جربت إحساس الخلود؟.. الكل يستخف بذلك وأنت وحدك تعلم أنك (حيٌ على قيد الوفاة)

هذا ليس بخطأ إملائي، نعم هو الخلود بعينه، والفاعل صدمة.. هي تلك الصدمة التي عرضنا إليها أحدهم.. فقد كُتب على إحدى جدران مستشفى نفسي تلك العبارة (كنا بخير لولا أحدهم)..

استهان الكُل بتلك العبارة، قبل أن يجبرهم الواقع على الإيمان بها، لم يفرق أحدهم بين مريضٍ وطبيب، فالكل سواسية وضحايا للصدمات.. تلك الصدمات التي جعلت موهوم يقطف (وردة) ليست له، فاختلط الحابل بالنابل لتصبح الرؤية ضلالية.. وفي ظل كل تلك الغيوم.. صرنا جميعًا كمرضى (كلبتومانيا) نسرق من الدنيا ما نخشاه، فنكسر آخر مصابيح الغرفة المظلمة ونعلق الفأس على كتف من لا حول له ولا قوة.

الفصل الثالث

كنا بخير لولا أحدهم

1- حيٌّ على قيد الوفاة فاطمة رزق

2- كنا بخير لولا أحدهم ندى سعد

3- وردة سلمى وليد

4- كلبتومانيا المشاعر إسراء عطية

1- حيٌ على قيد الوفاة

فاطمة رزق

(م)

العاشر من يناير 2017

تقبضُ يدها بقوةٍ على السور الحديدي، وقدمها قد وجدت موضعها على عتبةٍ صغيرةٍ خارج تلك الشُرفةِ الواسعة.. يمتزجُ الهواءُ مع شعرها، ولونُ السماء تتداخل مع لون ثيابها.. فقط حركةٌ واحدةٌ تفصلها عن مُفارقة تلك الحياة.

نحنُ الآن نتحدثُ عن فتاةٍ تُحاول الانتحار أعلى ناطحة السحاب تلك، فقط لترى وجهها وتُدرك ابتسامتها التي تواجهُ بها كل تلك الوجوه المرتعبةِ أمامها، وتُردفُ في سكونِ الريح:

- لا تقلق أخي.. سأُثبتُ لكم فقط أنّي لا أموت. سأُثبتُ لكل من هو هنا الآن أنّي خالدة.

لحظةٌ واحدةٌ فحسب فصلتها عن تحريرها ليديها، لتطفو في الجو لحظاتٍ حتى تَضمها الأرضُ بجاذبيتها الحميمة بكل ما لديها من قوةً.

***

"قناة (SCS)..

من أعلى مبنى (..) ألقت الكاتبةُ المشهورة (دانا إليكسندر لاهوترا) - والمَعروفةُ بلقب (العُصفورة)- نفسها مُتعمدةً تنوي الانتحار.. أثبت

الطبيب المُشرفُ على حالتها أنَّها لم تكن المرةَ الأولى، بل حاولت الانتحار مراتٍ كثيرةٍ لتُثبتَ لهم أنَّها خالدة! وأن شيئًا لا يقدر أبدًا على إبادتها.."

***

"قناة (BOC)..

وهذا ما يُثبتُ أنَّها حادثةُ انتحارٍ تمت على أساس مرضٍ نفسي، وقد أكَّدت مُدبرةُ المنزل أن الكاتبة (دانا) لم تكن تتصرفُ بشكلٍ طبيعيٍ أبدًا في الأيَّام الخالية.. وهذا بالتحديد حدث بعد الحادثة التي تعرَّضت لها العصفورة.. كما وأن هُناك العديد من المشتبه بهم؛ هم من جعلوها تُقدم على ذلك تحت الكثير من الضغط النفسي عليها.. سنوافيكم بآخر الأخبار.. "

***

"قناة (YGM)..

هذا البثُّ مُباشرةً من أمام المبنى الذي لقيت فيه الكاتبة (دانا) حتفها. نستطيعُ رؤيةَ دماءها المُتناثرةِ في هذه المنطقة، ويقولُ شهودٌ عيان أن جسدها قد تفتت كُليًا بعد تلك الحادثة.. وبالاستناد لفحوصات الطب الشرعي فقد تبيَّن أن رأسها، وذراعيها، وساقها الأيمن قد انفصلوا عن جسدها من قوة سقوطها.. كما وأن التحقيق في تلك القضية سارٍ حتى الآن.. "

(و)

العاشر من ديسمبر 2016

دانا..

كان ذلك الشُرطي يُحدقُ بي مُستفسرًا، وأمام عينه حاسوبه الصغير، وكنتُ أشعرُ حينها بأنَّ روح الثأر عندي على أشُدها..

- باشري الحديث.

كان ذاك ما سمعتُه منه وأنا أستحضرُ ذاكرتي، فقلتُ:

- سأُخبرك سيدي، منذ أشهرٍ وأنا أُلاحظُ أن زوجي يخونني، عندما أعود من العمل أسمعه يُخافتُ امرأةً عبر هاتفه، أرى الفراش غير مُرتبٍ أبدًا، وأشتم رائحة عِطرٍ أُنثويٍ، أحيانًا أجد النافذة مفتوحةً، أرى زوجي عاري الصدر وقد غزا التوتر، والعرق وجهه. سألته كثيرًا أن يُصارحني، لكنه لم يفعل. مضت الأيام بنفس الطريقة، وفي أحدها قررتُ أنّي لن أذهب لعملي هذا اليوم، وسوف أُراقبه. خرجَ زوجي من المنزل يومها، وذهب إلى أحد المنازل، وكنتُ أعرفُ أنَّه منزلها، لكني لم أقل شيئًا، قررتُ أن أضبطهُ متلبسًا حتى أُصارحه بالحقيقة، ويُجاهرني إيَّاها، ولكن قبل أسبوعين يا سيدي رأيتُه في حلمي يقول لامرأةٍ جميلةٍ أنَّه سيقتلني، ويرثُ ثروتي ليستمتعا بها، ثم يتزوجان بعدها. في هذا اليوم استيقظتُ لأجد زوجي يحمل سلاحه وينظر له بعنايةٍ شديدة.. انتفضتُ بذعرٍ، وسألته:

- من الذي تُخطط لقتله؟

ابتسم لي ابتسامةً مرعبةً جدًا، وضحك ساخرًا وهو يقول:

- أنتِ بالطبع.

انتظرتُه حتى خرج من الغُرفة ليدخل الحمام، وأسرعتُ بحمل أغراضي المهمة داخل حقيبةٍ صغيرة، وقررتُ الهرب بعيدًا.. ولكني

سمعتُ وطأ أقدامه قبل أن أخرج، ثم رأيتُه يحمل سلاحه ويقول لي بحقد:

- إلى أين أنتِ ذاهبة؟

ثم أطلق النار عليَّ يا سيدي، وقتلني.

رأيته ينظر لي بجديةٍ، ويقول:

- لكنَّ جسدكِ لم يكن به أيُّ رصاصات!

- اسمعني من فضلك يا سيدي، لقد قتلني وأطلق النار على رأسي، ولكنه أخرج الرَصاصة قبل أن يضعني في المشفى ليقول أنَّني اصطدمتُ بالطاولة وأنا أسقط، ويُحول القضية لحادثٍ عَرضي.

***

جانج ديفور لي..

سمعتُ الشرطي يقول بينما أنا أشعرُ بالصدمة تجتاحُ كياني من كل شيء:

- زوجتك تتهمك بأنَّك حاولت قتلها، كيف حدث هذا؟

فأَجبتُه بهدوء:

- يا سيدي أرجوك، هذه المرأة مجنونة! تقول أنِّي أصبتها بسلاحي رغم أنَّ..

- يمكنك الرد على أسئلتي فقط، الطبيب هو الذي يُحدد أمجنونةٌ هي أم لا.

- حسنًا، مُنذ عدة أشهرٍ وهي تَشكُّ بي، أن رأت النافذة مفتوحة تقول إن المرأة التي كانت معي هربت من النافذة! أن رأتني عاري الصدر ظنت أني خنتها.. والأدهى أنَّها تتوهم أُمورًا عجيبة، كصوتي مثلًا أقول لها شيئًا،

وهذا لم يحدث، كرائحة عطري التي تتحول لرائحةٍ أُنثويةٍ في أنفها! وقبل أُسبوعين استيقظتْ وأنا أمسحُ مسدسي الذي تلوث من دماءِ آخر مجرمٍ قبضتُ عليه، فظنَّت أنّي أُحاول قتلها، سألتني حينها أُخطط لقتل من؟ فمازحتُها بأنَّها هي، ولم أكن أعتقد أبدًا أن تظن ذلك فيَّ. حين خرجتُ من الحمام هذا اليوم وجدتُها قد حزمت حقيبتها، فسألتها:

- أين أنتِ ذاهبة؟

وحين استدارت لتراني اتسعت عينيها لثوانٍ قبل أن تسقط مغشيًا عليها، فتصطدم بالطرف الحاد من الطاولة وتنزف رأسها. أسرعتُ بها إلى المشفى فأخبرني الطبيب أن حالتها خطرة، ولذلك ظلت في الغيبوبة لمدة أسبوعين كاملان.

***

دانا..

سألني الشُرطيُّ فجأةً وهو ينظرُ لي مُستنكرًا:

- ماذا تقصدين بأنكِ كنتِ ميتة؟

أجبتُ بهدوءٍ وأنا لا أدري إلى متى سيعتقدُ الناسُ أنّي مجنونة!

- يا سيدي، لقد متُّ بالفعل لمدة أسبوعين كاملين، رأيتُ فيهما العالم الآخر، ورأيتُ الكثير من الأُمور، ورأيتُ زوجي يخونني مُجددًا.. ثم استفقتُ من الموت بعدها وأدركتُ أمرًا هامًا.. أنا خالدةٌ لا أموت. وأدركتُ أيضًا أن عليَّ الانتقام مِمَّن أراد لي الموت، وحاول قتلي..

***

جانج..

سألَ الشُرطيُّ وهو يضربُ بخفةٍ على سطح المكتب أمامهُ:

- هل تقصدُ أنَّها حاولت قتلك بعد تلك الأوهام التي طاردتها؟

استجمعتُ أفكاري عن تلك المجنونة، وكابوس الأيَّام الخوالي، وأجبتُ:

- أجل، في الحقيقة لقد حاولت قتلي بعدها، مرةً باستخدام السكين، والأُخرى مُحاولة شنقي بالحبال. لكني أفلتُّ منها فقد كانت أضعف من أن تقتلني، ثم حجزتُها في المصحة بعد موافقة أخيها الأكبر باعتباره من تبقى من أهلها.

رأيتُ الضابط ينظرُ لي بدهشةٍ ويقول:

- اشرح لي كيف قامت بذلك؟

- استيقظتُ يومها فوجدتُ نفسي مُكبلًا على المقعد الخشبي في غُرفتي، شعرتُ بها تلفُ الحبل حول رقبتي، ولكن لحسن حظي أنَّها لم تربط حبل يدي جيدًا، فاستطعتُ أن أحله وأبعدتُها عني. لقد كنتُ خائفًا في تلك الأيام، كانت تضعُ دائمًا منومًا لي في الطعام حتى تقتلني، لذلك لم أجد بُدًا من حجزها.

***

دانا..

- ولكنكِ حاولتِ قتلهُ مرَّتين، وهذا يضعكِ في دائرة الاتهام.

- هذا لأنَّ أحدًا لا يُصدقني أبدًا مهما قلتُ، فقررتُ أخذ حقي بيدي. الجميعُ يعتقدُ أنني مجنونة.. تبًا للجميع، أنا أُدرك جيدًا أنَّي لستُ كذلك، وأن المُجرم الحقيقي هو (جانج ديفورلي).. فسوف يفعل ذلك بنفسه ليأخذ ميراثي، ويتزوج من عشيقته التي كان يواعدها في الأشهر الخالية.

***

راميش..

- مُنذ متى وأنتِ تُعالجينها؟

- منذ ما يقربُ من ثلاثة أشهرٍ يا سيدي، اكتشفتُ أن لديها بعض أعراض الفصام كمرضٍ رئيسي يندرجُ أسفلهُ عددٌ من الأمراض الأُخرى كالقلق، والهلوسة، ولكن الحالة تطورت بعد ذلك لتشمل وهم كوتار.

سألني الشرطي بحيرة:

- لم أفهم!

- سأُخبرك سيدي؛ هذا المرض يأتي لمريضٍ لديه استعدادٌ كبيرٌ بأن يُصاب به، وهذه الحالة كان لديها الكثيرُ من الأمراض النفسية، وكذلك الذُهان والذي أهلها للوصول لتلك المرحل من هذا الوهم -كوتار- وهنا يعتقدُ المَريضُ نفسه ميتًا، ويتصرَّف على ذلك النحو، إذ يُهيئ لهُ عقله كل الاستعدادات لذلك. وفي حالاتٍ أخرى مثل حالة "دانا" يعتقدُ المريضُ أنَّه قد مات من قبل، ثم عاد للحياةِ من جديد، وهذا ما يجعلهُ يعتقدُ أن كل المرَّات التي سوف يموتُ فيها سيعود مُجددًا للحياةِ بعدها، وهو ما يجعلهُ يعتقدُ نفسه خالدًا لا يموت. ولأن هذا الاعتقاد يُواجهُ دائمًا بالسخرية فالمريضُ غالبًا ما يسعى لتأكيد ظنه هذا.

***

دانا..

- ولماذا إذًا أقدمتِ على مُحاولة الانتحار ثلاث مرَّاتٍ من قبل.

- سيدي، لقد اختلط عليكَ الأمر.. المرء الذي ينتحر هو الذي يموت، أمَّا أنا فلا أموتُ أبدًا، ومن هنا يجب أن يعلم الجميع أن هذا ليس انتحارًا، بل هو فقط مجرَّد بُرهانٍ لكم لأُثبت أنّي لا أموت.

راميش..

- إذا اعتقد الشخصُ أنَّه لن يموت مهما فعل فعلى الأرجح لن يُصدقه أحد، ولذلك يقوم المريضُ بمحاولة الانتحار فقط ليُثبت صدق نظريته. ولكن (دانا) في مرحلةٍ مُتقدمة، وقد رسخ هذا الاعتقادُ لديها بقوةٍ كبيرة، وأنا واثقةٌ أن المَطافَ بها سينتهي وقد أصبحت جُثةً هامدةً.

(خ)

"حين أدركتُ أني خالدةٌ لم أكن سعيدة، أدركتُ يومها أنّي سأُعاصر هكذا الكثير من الأزمنة، سأتألم كثيرًا، وأبكي طويلًا، وأرى كل من حولي يفقدون حياتهم أمامي، وأنا ما زلتُ على متنها، تساءلتُ لحظتها.. ما فائدة ينبوع الشباب؟ وما الجميل في أن تطول بنا الحياة! أن كنتُ هُنا أم لم أكن هُناك؛ فأنا بقلمي سأُخلِّد ذكراي أبد الآبدين، ولكن جسدي الآن مُرهقٌ قد هدَّه التعب، وآواهُ، وقلبي يشتاقُ لمن سكنهُ التُراب ووارهُ.."

«العُصفورة»..

2- كنا بخير لولا أحدهم..

"لكل اللي اتوجع ومتحملش.. أهديكم تلك السطور"

ندى سعد

أنا نسيم تخرجت حديثا في كلية التمريض أحببت التخصص بمجال التمريض النفسي، أحببت علم النفس كثيرا لكن طوال فترة دراستي لم أر بعيني تلك الأمراض عن كثب، فقط قرأت الكثير وسمعت الأكثر وحذرني الجميع من ذلك القسم الذي قد يؤثر عليَ بالسلب، ولكني لم أستمع لذلك.

اليوم هو الأول لي بالمصحة النفسية.. وبرغم ما اعتراني من حماس.. إلا أن الخوف نجح بدق أبواب قلبي، لكني دخلت بابتسامة واسعة متفائلة لما سوف يحدث.. ونتيجة لتفوقي قاموا بإعطائي حق الاختيار أن ابدأ ما بين قسمي الرجال والنساء، فاخترت النساء ظنًا مني أنه أهدأ، لكن ظني اختفي بمجرد رؤيتي للابتسامة السمجة التي ارتسمت على شفتي مدير المستشفى الذي أكد لي أن الرجال أفضل، حدثت نفسي بأنه منحاز لبني جنسه وأكملت قراري.

دلفت إلى القسم لأبدأ بممارسة مهامي بحماس شديد لمحت بعيني عبارة قد كُتبت أعلى سرير إحدى المريضات

"كنا بخير لولا أحدهم"

لم أعرها أي اهتمام سوى ابتسامة ساخرة، فكيف للآخرين أن يتحكموا بمصائرنا.. يا له من غباء!

التقيت بأول مريضة بالقسم والتي بدا عليها الهدوء واللطف.. فاقتربت منها راسمة ابتسامتي فالتفتت إليَ لتبادلني الابتسامة.. قبل أن أتحدث قائلة:

- أزيك يا سلمى

ردت بطريقة طفولية للغاية بالرغم من أنها قد تجاوزت الستين من عمرها قائلة:

- الحمد لله يا دكتورة

- أنا مش دكتورة أنا الممرضة بتاعتك يا سلمى عاملة أيه النهاردة؟

- كويسة أنتي اسمك أيه بقى؟

- أنا نسيم

اتسعت ابتسامتها وبدأت تغني بصوت عالي قائلة:

- نسيم يا نسيم يا أم شعر يطير يا نسيم

تجاهلت طريقتها الطفولية، فلابد أن أُشعرها بطبيعة تصرفها هكذا تعلمت ونفذت ما تعلمته، قاطعت غناءها بقولي:

. أنتي بقالك قد أيه هنا يا سلمى؟!

- بقالي 3 أيام بس

عقدت حاجبي ذهولًا من ردها.. ثلاثة أيام!!.. سلمى هنا منذ كان عمرها 22 عاما أكثر من أربعين عاما قد تحولت فجأة لثلاثة أيام؟! أيعقل أن تنسى عمرها الذي فقدته بين تلك الأسوار الحديدية، لكن ما الذي ألقى بها بين طيات تلك الأسوار؟!.. يجب أن أعلم كل شيء.

لم يمهلني الوقت لاستكمال حديثي معها، فانطلق صوت الجرس بالمصحة معلنًا عن ميعاد تناول الطعام.. فهرولت "سلمى" ممسكة بدميتها كالأطفال والفرحة تعتريها.

بدأت بالتجول بين جنبات المستشفى، المشفى بنظري سجن كبير به حديقة واسعة يوجد بها مرمى لكرة القدم، ينقسم المشفى بين مبنى

صغير خاص بالمدمنين وقسمين للرجال رجال أ ورجال ب وكذلك حريم أ وحريم ب

وبينما كنت غارقة بأفكاري إذا بصوت صريخ شديد وأحد أفراد التمريض يعلو صوته مستغيثًا قائلاً:

- قمر سرقت السكين

عدوت لأرى ماذا هنالك لأجد القسم في حالة من الهلع وجميع من في القسم ممسكون بقمر والدم يسيل على الأرض من يدها اليسرى، والصراخ يدوي بأركان المشفى، انتابتها نوبة صرع شديدة فسرقت السكين وقطعت أحد أصابعها، قمنا بالإمساك بها وللأسف لجأنا إلى جلسة الكهرباء المؤذية.

- شغلوا على 8 أمبير

- شغلوا على 9 أمبير

كان صراخها يزداد كلما زادت قوة الكهرباء قدميها ترتفع لأعلى وتجز على أسنانها بقوة لولا العازل المطاط الذي وضعناه بفمها لكانت اجتزت لسانها.

- اطفي الجهاز نيموها في الأوضة ولفوا أيديها بشاش وغيرولها علي الجرح

قالها الطبيب وهو يخرج من الغرفة ببرود المشاعر ولا مبالاة وكأنه انتهى من ري زهور الحديقة لتوه، أي تري ذلك لتعوده علي تلك المشاهد؟ وهل سأتحول في يوم من الأيام إلى بلادة المشاعر تلك؟ لا أعلم...

قمر تلك الفتاة ذات الوجه الملائكي والجمال الفتان ها هي تقطع من جسدها جزءًا بمحض إرادتها.. يا لذلك الزمان، لا أصدق أن وجهًا مثل

ذلك القمر النائم أمامي الآن.. كان منذ قليل رافضًا لذاته، لجماله، رافضًا حتى لأجزاء جسده.

انتهى يومي الأول المليء بالأحداث يا له من يوم، اهتز هاتفي معلنًا عن ورود مكالمة.. إنه سمير حبيب قلبي وروحي يعمل ضابط بالشرطة.. فأجبت على اتصاله بلهفة:

- ألو أيوة يا حبيبي

- أيوة يا روحي فينك أيه الشغل خلاص خدك مني

- مقدرش أبدا بس كان يوم متعب أوي سامحني

- أسامحك أيه يا عبيطة ده أنتي حبيبتي قومي البسي عشان أخرجك يلا من زمان مخرجناش أنا كلمت باباكي وقال ماشي

- بجد أنت أجمل راجل في الدنيا يا سمير بحبك

***

"مالك يا نسيم حاسك زعلانة؟"

هكذا تساءل ليقطع شرودي وأنا جالسة بجواره.. فهممت برسم ابتسامة على شفتي قبل أن أجيب:-

- مفيش بس مضايقة من اللي حكيتهولك على الحالات في المستشفي.

مد يده مداعبًا خصلات شعري.. فهو يعلم أني أعشق تلك الفعلة التي تحولني إلى طفلة قبل أن يتحدث بصوته الأجش الذي أعشقه قائلاً:-

- نسمتي أقوي من كده، عايزك متتعامليش مع الأمور بحساسية زيادة

- أنا زعلانة عليهم إزاي يسيبوا نفسهم بالضعف ده أنهم ميقفوش ويقدروا يكملوا أيه يعني أن نفقد حد اه الموضوع مؤلم لكن المفروض فترة وتعدي

- طب سيبك من كل ده اضحكي بقي عشان خاطر حمص

- حمص مين؟!!

- ابننا أنتي نسيتي حمص ده أنا خلاص اشتريت الأوكر بتاعت الأبواب اينعم أنا لسه مركبتش الأبواب بس أهم حاجة الأوكر أصل أنا بعشق الأماكن المغلقة

انطلقت ضحكاتي بين جنبات سيارته، فأنا أفهم ما يقصده تماما.. قبل أن أتحدث قائلة:-

- يخربيت قلة أدبك.. قسم الآداب بوظ أخلاقك

- يابوي عالضحكة يا جدعان بما أن أنك ضحكتي وإحنا مخطوبين وكاتبين كتاب وكده

- أيوة يعني عايز أيه لا يا حبيبي أنا أشرف من الشرف

- ده أنتي أشرف نفسه ليه نيتك وحشة أنتي مخك أخ منك أنتي أخ أنا قصدي أجبلك آيس كريم

***

توجهت إلى المشفى باليوم التالي، أول من رأيت كانت عزيزة تلك المرأة التي تنهمر من فمها أبشع الألفاظ لمجرد أن أقول لها صباح الخير فقط، لا اعلم لماذا حتى الآن؟!.. لكن تشخصيها فصام في الشخصية معظم حالات المستشفى لها نفس التشخيص لكن لكل تشخيص حكاية قررت الابتعاد الآن عن عزيزة والاقتراب منها في وقت آخر تكون جفت تلك الكلمات البذيئة من حلقها، انتقلت لغرفة العزل لأجد قمر المسكينة مستلقية علي السرير مرتدية ذلك القميص المعكوس.. إحساس شديد الصعوبة أن تتخيل أنك مقيد بتلك الطريقة الحيوانية للحظة وليس لأيام.. اقتربت منها متأملة ملامح الفزع بعينيها، فربت على كتفها في محاولة مني لبث الطمأنينة بروحها.. وبدأت الحديث:-

- قمر أزيك النهاردة

- أنا كويسة بصي أنا مش هعمل كده تاني بس متحروقنيش تاني والنبي

- إحنا محرقنكيش يا قمر بس أنتي كانت أعصابك تعبانة وعملنا ليكي جلسة كهرباء بسيطة

- لا الكهرباء دي بتحرقني ربنا يخليكي والنبي متحرقونيش تاني

- طب بس بشرط تحكيلي عملتي كده ليه امبارح

زاغت عيناها يمينًا ويسارًا وكأنها تتأكد من خلو غرفة الحجز قبل أن تبدأ بالكلام بصوت هامس:-

- هقولك ومتقوليش لحد ها ده سر أصل الصباع ده كان في مرض أسود وكان عايز يموتني قمت قطعته عشان مموتش أنتوا ودتوه فين أوعى يموتك أنتي كمان ده عايز يموت أي حد

- متقليقش يا قمر هو مش هيموتك بس أوعديني لو حسيتي أي حاجة في جسمك عيانة وشايفة أنها هتموتك، متقطعهاش قوليلي وأنا اديلك علاج

- حاضر يا مس نسيم هتطلعوني من الأوضة امتي

- كل ما كنتي هادية كل ما طلعتي أسرع سلام يا قمر

تجولت في أنحاء القسم لأجد نادية تنظر إلي الحائط وتضحك بقوة، واضح أنه هوس وهلاوس سمعية وبصرية ذهبت لأجلس بجانبها وأبدأ بالحديث معها:-

- أزيك يا نادية

نظرت إليَ بغضب قبل أن تتحدث بنبرة العتاب قائلة:-

- اسكتي.. مش شايفاني بكلمه

- بتكلمي مين؟

- بكلم عبده.. بقوله ميعملش نار عشان منموتش اسكتي بقا بكلم معاه

أعادت نظراتها إلى الحائط من جديد وبدأت بالحديث بفزع كبير قائلة:-

- بقولك أيه يا عبده أنا طيبة معاك عايز تموتنا ليه طب أقولك موت عزيزة أصلها سموية مبتحبش حد لكن بلاش نار بلاش يا عبده

كنت أراقبها عن كثب كانت بالفعل تضحك منذ ثانية وبدت عليها فجأة علامات الفزع والخوف كأنها بالفعل تحترق بنار عبده

- نادية مين عبده وعملك أيه؟.. احكيلي متخافيش.

خفضت رأسها إلى الأسفل وتنهدت تنهيدة وكأنها عبرت بها الزمان، قبل أن تلتفت إليَ لأرى تلك الدموع المحتبسة تتلألأ بعينيها.. ليخرج صوتها الواهن لتتحدث قائلة:-

- كان حياتي كلها.. فضلت أحبه 5 سنين كان جارنا كنت بقف في عز التلج عشان بس ألمحه يوم.. وبعد فترة جه وخطبني كان قلبي بيرقص من الفرحة واتجوزنا

- أومال أيه اللي حصل؟

- حصل أن الداء اللي عند كل الرجالة كنت عند أمي ورجعت بدري لقبته في السرير مع أختي الوحيدة محستش غير وأنا بجري علي المطبخ أجيب السكينة وحطتها جوه قلبه

حاولت تهدئة خوفها ولكنني لم أستطع، فذهبت لمتابعة نشاط يومي وعقلي يدور بالتفكير أيعقل أن يخونني سمير مثلما فعل ذلك العبده

بنادية، لكن سمير يحبني.. فيصرخ عقلي.. وما الفارق؟؟ ظللت أحارب تلك الوساوس حتى طردتها من عقلي.. طردت تلك الوساوس من عقلي وذهبت لأكمل عملي حتى انتهاء اليوم.

ذهبت إلى المنزل متعبة وقعت عيني على إحدى السلوك العارية بحائط المنزل.. لا أعلم لمَ قفزت أحاديث قمر لي عن ألم الكهرباء.. خانني إحساسي بالفضول.. فلم أشعر بنفسي إلا ويدي ممتدة إلى ذلك السلك والكهرباء تسري بجسدي حتى أسدل الظلام ستائره على عيني.

***

- الحمد لله يا مدام هي بخير أغمي عليها بس من خضة الألم

- طيب شكرا يا دكتور، نسيم حبيبتي.. فوقي ما تخضنيش عليكي أكتر من كده.

سمعت ذلك الحوار من على بُعد وبدأت أشعر بأصابع أمي تداعب خصلات شعري.. ففتحت عيني لأجد نفسي بغرفة مشفى.. نظرت إلى أمي متسائلة:-

- في أيه هو أيه اللي حصل ؟

- مفيش يا حبيبتي أنا دخلت لاقيتك وقعة في الأرض جنب كوبس الكهربا.

- أيوة أصل كنت بشبك الفيشة واتكهربت بس متقلقيش عليا يا ماما

طرقات على باب الغرفة قطعت حديثي مع والدتي، قبل أن استمع إلى صوت سمير متسائلًا بطريقته المازحة:-

- ممكن ادخل؟

- اتفضل يا سمير

هكذا أجابت والدتي ليلج سمير الغرفة مقتربًا مني تملأ عينيه نظرات الحنان قبل أن يتحدث قائلاً:-

- عاملة أيه دلوقتي؟ خضتيني عليكي

هبت أمي من مكانها قبل أن تبرر خروجها من الغرفة بأن والدي بحاجة إليها، وبمجرد خروجها جلس سمير على طرف فراشي مصففا خصلات شعري بيديه قبل أن يتساءل:-

- ها يا قلبي عامله أيه دلوقتي؟

- الحمد لله بقيت أحسن لما شوفتك

لا أعلم لمَ قفزت قصة "نادية وعبده" إلى ذهني.. فنظرت إلى سمير والخوف يعتريني قبل أن أتساءل بصوت أوشك على البكاء:-

- سمير أنت ممكن تخوني؟

- لا طبعا أنتي مجنونة أيه الهبل وأيه اللي خلاكي تفكري كده

- مفيش بس جت علي بالي.. طب أوعدني أن عمرك كله هتفضل تحبني وعمرك ما هتخوني

- اوعدك عمري ما هخونك إنما قوليلي أنتي أحلويتي أوي كده ليه ولا اكمنك عيانة

- أنا حلوة علي طول أنت اللي مبتاخدش بالك

- احم مباخدش بالي برده؟!.. طب بقولك؟

انطلق صوت والدتي وهي تنادي على سمير قائلة:-

- يا سمير اطلع يا حبيبي اقعد بره مع ابو نسيم عايزك

ارتسمت ملامح خيبة الأمل على وجهه فهم بالرد عليها بصوت متحسر قائلاً:-

- جت في الوقت الغلط حماتي، أيواااا أنا جاي أهو يا عمي.

ضحكتُ على ردة فعل ذلك المجنون الذي أعشقه، أعلم أنه يحبني.. ويحاول جعلي مبتسمة في كل الأوقات ما أجمل أن تجدي من تحبي بجانبك دائما.

***

بعد يومين إجازة من العمل ذهبت وعندي حنين كبير ممزوج باشتياق لمرضى القسم وحكايتهم المليئة بالحزن والألم، بدأت بالمرور بين المريضات.. فعزيزة ذات الألفاظ البذيئة لا زالت على حالها، وتلك الطفلة الراقدة بجسد المرأة العجوز "سلمى" لا زالت تلهو بدميتها.. ولا زالت نادية تعاتب السراب أو بمعنى أصح عبده.. قبل أن تتعالى الأصوات الصارخة داخل القسم.. فركضت تجاه الصوت متسائلة:-

- في أيه؟

- قمر في حالة هياج ودكتور رفعت نقلها أوضة الصدمة عشان جلسة الكهربا

هكذا جاءني الرد، لم ألتفت حتى لأرى ملامح قائله بل ركضت بكل قوتي تجاه غرفة الكهرباء حتى اقتحمتها وأنا أصرخ متوسلة:-

- يا دكتور رفعت ممكن ندي لها حقنة مهدئه في حاجات تانية غير الصدمة بالكهرباء.

- أنتي مش شايفة حالتها وبعدين أنتي عشان جاية من كلية هتعلميني شغلي يلا هاتوا الجهاز

لم أشعر بشيء إلا وجهاز الصدمة ملقي على الأرض مكسر إلى مائة قطعة وأنا أصرخ:-

- اللي هيقرب لقمر هكسر دماغه

نظر إليَ الجميع بذهول، قبل أن يتحدث دكتور رفعت بلهجة محذرة قائلاً:-

- أنتي اتجننتي أنتي عارفة أنتي عملتي أيه؟

- أيوه منعت جريمة أنها تحصل

- أنا هعرف شغلي معاكي هيبقي إزاي

كان صراخه وكلماته لا تهمني بقدر اهتمامي وانتباهي لعيني قمر الشاكرة لي، الغريب أن حالتها هدئت تماما بمجرد تحطيم ذلك الجهاز

خرجت أنا وقمر من تلك الغرفة اللعينة كادت عيون كل من في القسم من مرضى تصفق لي شكرًا على إنقاذ قمر.. ومن بينهم وقفت عزيزة الرافضة للكلام مع أي من الممرضات أو حتى الأطباء.. وقفت هي الأخرى والسعادة تغمر عينيها، فوجدت أن ذلك الوقت هو المناسب لتحدثي مع عزيزة لأني أيقنت طردي من المصحة وأردت بشدة معرفة قصتها.. فاقتربت منها ببطء وهي تراقبني، وللمرة الأولى لم تندفع الألفاظ البذيئة من لسانها بل فقط صمتت.. حتى بدأت الحديث:-

- عامله أيه يا عزيزة؟

- كويسة يا اختي

لقد تحدثت؟!.. لم تسب ولم تلعن!!.. حاولت قدر الإمكان التحكم بملامح وجهي قبل أن استكمل حديثي:-

- عزيزة احكيلي حكايتك؟

- عارفة لولا أنك نجدتي البت قمر مكنتش كلمتك أبدا

تنهدت وغيرت وضعية جلوسها لتربع قدميها وتبدأ بسرد حكايتها:-

- أنا مش هبلة عشان تكوني فهمه أنا بس معدتش قادرة أعيش مع الناس اللي بره كلهم أوس.....

- عزيزة من غير شتيمة كملي

- أنا وحدة شمال أو بقيت شمال.. كل ذنبي أني حبيت رجب مشيت وراه يمين يمين شمال هيبي شمال قالي هتجوزك عشمني وخلي بيا اترجيته يتجوزني ويستر عليا رفصني برجله وقالي لا، وفي يوم أخدني شقة لاقيت فيها كل اللي ممكن تتخيليه من حشيش لنسوان على رجاله عرفت أنه قواد درجة أولى لما مرضيتش ابقى من حريمه هددني أنه مصورني وأنا معاه وهينزلها عل النت رضيت واشتغلت يوم في يوم اتعودت لحد ما في يوم لقيته هو نفسه شغال الشغلانة بتاعتي في الشقة لا وأيه احسن مني كمان مع رجالة قرفت منه ومن نفسي ومن كله واجهته ضحك ولا همه أصر عليا وغصبني محستش بنفسي غير وإزازة الخمرة فوق دماغه سايحة بالدم ساعتها بس استريحت.. ها ارتحتي لما حكيتلك عرفتي أن كلهم أوس... ولا بلاش

كنت استمع لقصتها وأنا انظر لتلك العبارة المكتوبة على الحائط "كنا بخير لولا أحدهم".. هل من الممكن أن نتأذى لهذه الدرجة؟!.. هل من الممكن أن يحولنا أحدهم من تمام العقل إلى نزيل بمصحة نفسي؟

- نسيم المدير عايزك

قطعت تلك الجملة حديثي مع عزيزة أو بالأحرى قطعت حديثي مع نفسي، توجهت إلى مكتب المدير وأنا على علم بما سيحدث.. ولجت إلى غرفة مكتبه فصاح بي قائلاً:-

- أنتي شغلتك هنا أيه؟

- يا دكتور افهمني بس

- أفهم ليه كسرتي الجهاز؟ أنتي هتدفعي تلفيات اللي حصل ومن النهاردة أنتي منقولة لقسم الرجال

ذهبت إلى قسم الرجال تنفيذًا لأوامر المدير المتعجرف الذي حتى لم يكلف خاطره أن يستمع لما سأقوله ذهبت إلى قسم رجال "ب"، لم أكن أريد مغادرة قسم النساء فلا زالت هناك من الحكايات ما أردت معرفته أردت أن استكمل حديثي مع "نادية ".. هل كان يحبها زوجها الخائن مثلما يحبني سمير؟!

كان قسم الرجال مثلما قال لي مدير المشفي في بداية الأمر هادئا لا يشبه قسم النساء نهائيا فيما يبدو أن المغني أبو الليف كان له نظرة مستقبلية عندما قام بغناء دولا مجانين.. كان المكان يشبه الدائرة الكبيرة وفتحات في السقف تسمح بالتهوية ودخول الشمس ولكن السقف شاهق جدًا تجنبًا لهروب أحدهم والغرف عبارة عن أربع غرف كبيرة وحمام واحد!!

بدأت في أول أيامي في قسم الرجال اتفحصهم جيدا، هم ليسوا كقسم النساء بتاتا أنهم قليلو الكلام يلتهمون السجائر والشاي كالجوعى.. هناك من هو صامت طوال الوقت لا يفعل أي شيء سوى الاستدارة حول أحد الأعمدة دون أن تؤلمه ساقه أو يشعر بدوار.. يعاني حالة اكتئاب شديدة وفرط حركة وليس معروف سبب ذلك أهله تركوه هنا وذهبوا وليس هناك سبب معروف، حاولت كثيرا التحدث معه ولكن كان الصمت رده.. فقررت أن أجلب له شيكولاتة.. فمن المعروف عن مرضى الاكتئاب عشقهم لها ولذلك الفتيات هن أكثر من يعشقها.. اقتربت منه وبدأت بالتحدث:-

- كريم أزيك؟!

وكالعادة جاء الصمت رده.. فأمسكت بالحلوى التي اشتريتها من أجله.. وتابعت حديثي:-

- طب بص جبتلك شيكولاتة

مد يده ليأخذها دون أن ينطق بكلمة واحدة، ولكن لا مجال لليأس.. فابتسمت وبدأت بالحديث:-

- أنا عارفة انك مش عايز تتكلم بس صدقني أنت لو حكيتلي أنا مش هقول أي حاجة لأي حد ساعات الكلام والفضفضة بتريح وبتخلي الواحد روحه ترتاح أنا أما ببقي متضايقة بحكي لحد قريب مني برتاح يمكن أنت كمان ترتاح.

- أنا عمري ما هارتاح

صُعقت من هول المفاجأة لقد تكلم نعم أن صوته قد خرج من بين شفتيه، حاولت أن أخفي فرحتي ودهشتي وأكون هادئة حتى يشعر بالاطمئنان ويحكي لي

- ليه؟ أيه اللي حصل؟ أوعدك أن عمري ما هقول لحد

- كنت وأنا صغير وحيد.. عمر ما كان ليا أصحاب ولا أي حد أمي وأبويا كانوا لإما في الشغل لإما برا البيت كنت بقعد في البيت لوحدي من وأنا عندي 4 سنين وكان النور يقطع وأفضل برضو قاعد مكاني مكنتش بتحرك ولا بتكلم ولا في أي ردة فعل الموضوع اتطور لدرجة أني لما بقيت اتحرق من حاجة أو اتعور برضو مبتكلمش مش بقول أي حتى بس مكنش حد ملاحظ ده نهائيا مكنتش مهم.. كان أهم حاجة أني باكل وبنام وبس لحد ما أمي خلفت طفل تاني اهتمت بيه بس هو خدها وأخد بابا مني كانوا بيلعبوا معاه وأنا لأ فخنقته بالليل عشان أفضل أنا بس فسبوني هنا حاجة تضحك صح في الآخر سبوني برضو هههههه سبوني ومشيوا..

تركني وذهب ليداري دموعه المنهمرة والتي تركت غصة وألما جديدين بقلبي.. انتهى يومي وذهبت إلى المنزل والإرهاق عنوان لملامحي.. فتحت الباب لأجد سمير منتظرني بوجه عابس.. لم يمهلني حتى حق الجلوس بل بادر بالسؤال:-

- أزيك يا نسيم

- الحمد لله مقولتليش يعني أن أنت جاي

- أقولك ازاي وانتي مبترديش عليا طول النهار

- أسفة يا سمير بس كان عندي شغل كتير ومعرفتش اكلمك

ابتسم ساخرًا قبل أن يقول:-

- معرفتيش اه.. مش ملاحظة أنك من ساعة ما اتعينتي وأنا بقيت آخر اهتماماتك.. حياتك في الشغل ودماغك في المرضى بتوعك وناسيني وناسية كل حاجة ده منظر عروسة فرحها كمان شهر أنتي مبتجهزيش ولا بتعملي حاجة كل أما أقولك علي رأيك في حاجة أو تعالي نشوف سوا تتحججي وتقولي مش فاضية

- أنت مش شايف أنك مكبر الموضوع شوية أيوة كنت مشغولة شوية بس أنت لو بتحبني تحب دراستي وتشجعني أحقق كيان وكرير

- أمر واقع بقى هو لإما تعامليني بالطريقة دي وأسكت يأما لو اتكلمت ابقي وحش وديكتاتور وبلغي كيانك وشخصيتك صح.

للمرة الأولى تحولت أحاديثنا إلى صياح.. فنهضت من مقعدي لأتحدث غاضبة:-

- أنا شايفة أنك متعصب وشايفة أن إحنا نأجل الفرح شوية

- نعم نأجل الفرح اللي بقالنا سنتين مخطوبين و 3 شهور مكتوب كتابنا وأنا بفحت نفسي شغل وبطلع مأموريات ومبخدش أجازات غير كل فين وفين عشان اخلص البيت على الميعاد عشان سيادتك مش فاضية أقولك نأجله خالص

ذهب وصوت الباب يدوي من أثر يديه.. بكيت كثيرا.. أمي وأبي صرخا علي بأنني المخطئة لا أحد يفهمني لا أحد..

ذهبت للمشفى وأنا بمزاج سيئ لم يتصل بي سمير أنا أيضا لم أحاول، قررت أن انغمس في المرضى وحكايتهم لم تتوه عن بالي لحظة حكايات قسم النساء.. فأدركت وقتها أنني وقعت بفخ التعلق المرضي الذي طالما حذروني منه طيلة دراستي، أما عن سمير فأنا مدركة أنني المخطئة فبكيت مرارا وكثيرا، ولكن لمَ لم يفهمني سمير هذه المرة؟ أنا كنت خائفة من فكرة الزواج وتكوين عائلة وازددت رعبا عندما عملت بالمشفى ورأيت ما تفعله العلاقات من ألم ووجع خائفة من كل شيء حاولت أن التفت لعملي حتى وجدت من يقول لي بصوت خشن:-

- أنا عايز سجاير يا أبلة ربنا يخليكي

أنا مش معايا وبعدين أنت خلصت حصتك من السجاير النهاردة كلها.. أنت حد معصبك

- بصراحة بقي ايوة جمال اتشاكل معايا عشان أخدت منه سيجارة وكان هيضربني

- هو فين جمال ده؟

- أهو هناك اللي قاعد لوحده ده

- طب تعالا معايا وأنا أصالحكوا على بعض

- ما بلاش أنتي

- اشمعنا!

- هاا لا مفيش ماشي.

توجهت إلى ذلك الخمسيني الجالس بمفرده دائمًا وأنا أرى الذهول المختلط بالتحذير بأعين باقي المرضى.. ولكنني بدأت بالحديث:-

- أزيك يا جمال؟

تصاعدت أنفاسه تدريجيًا وهو ينظر لي بأعين جاحظة تحمل كل ما يدل على الكراهية قبل أن يصيح بي:-

- متتكلميش معايا وأبعدي عني مبكلمش حريم أنا

- ليه يا جمال؟

- أنتوا كلكوا زي بعض خاينين وكدابين بتخدعونا بصوتكم الناعم وجمالكم الكاذب كلكوا خاينين ومتستهلوش تعيشوا

كان يصرخ وعيناه مليئة بالدموع تأثرت جدا به واعتصر قلبي حزنًا لأجله فقررت سؤاله ليحكي ما بداخله وكانت الإجابة مفجعة:-

- عايزة تعرفي ليه كلكوا خاينين عشان هي كانت خاينة كانت عامله زي السم في العسل من برا شكله وطعمه حلو ومن جواه يقتلك من غير صوت كنت بطفح الكوتة عشان أجبلها طلباتها اللي مش بتخلص كنت ببوس التراب اللي بتمشي عليه كنت بحبها بحبها أووي مكنش فيه طلب أقدر أرفضه ليها حتى أهلي وصحابي قالتلي أبعد عنهم وبعدت عشان خاطرها كان جزاتي أيه غير وأنا مسافر سمعت خبر وفاة أمي اللي مبسألش عليها رجعت من السفر فجأة عشان أخدها وأروح العزا ملحقتش حتى دفنة أمي عشان ألاقيها نايمة في حضن واحد علي سريري فضلت واقف قدامها مش عارف اتحرك لحد ما اللي كان معاها هرب أول ما قدرت استوعب أنها فعلا بتخوني ماحستش غير ومصارينها في أيدي أيوة قتلتها ولو صحيت تاني هقتلها تاني وتالت وعاشر خاينة..

قالها وهرول بعيدا عني تألمت لألمه كثيرا لينتهي يوم آخر وتدهور صحتي أكثر.

ذهبت إلى البيت لأجد هاتفي يرن أنه سمير أجبت بسرعة وقبل أن يتكلم قولت له:-

- سمير أنا آسفة أنا بحبك والله أنا بس خايفة خايفة أووي من اللي جاي سامحني أوعي تسيبني يا سمير أنا مقدرش أعيش من غيرك والله وسيبك من أي حاجة قولتها

- طب بس خلاص متعيطيش أنا آسف أني سيبتك تخافي متخافيش أنا جنبك وعمري ما هسيبك اطمني أنا بحبك أنتي بنتي يا عبيطة قبل ماتكوني حبيبتي ومراتي حد يزعل من بنته طب اجبلك شاورما..

- اه بص

- بصيت أهو.. أيه ده أنتي حلوة أوي

- حاكم قعدتك في بوليس الآداب دي بوظتك خالص بس بقي بجد بص هاتلي واحد شاورما لحمة وواحد فراخ ومتنساش المخلل اه وهات آيس كريم بالمرة وبيبسي دايت

- بيبسي دايت مش شايف أنه ليه علاقة بالمدعكة اللي أنتي طلباها دي بس ماشي

- الله ما أنت عارف أني وأنا زعلانة بأكل كتير

- أهم حاجة الفرح في ميعاده مش فاضل غير أسبوعين يكون في علمك أنا اشتريت الأبواب وركبت الاوكر ها!!

- متتأخرش عشان جعانة.

***

توالت الأيام كنت أذهب للمستشفى كل يوم وبعد انتهاء العمل أحضر لوازم الزفاف واختيار ما تبقى من أشياء.. ولا زالت أسرار المرضى تؤكد تلك العبارة "كنا بخير.. لولا أحدهم".. تتوالى الأسرار التي تخلف بفؤادي حزنًا.. غلب على شعور عروس لا يفصل عن زواجها سوى يومين!

أنهيت عملي بذلك اليوم وحصلت على أجازة الزواج.. وذهبت لاقتناء باقي لوازم الزفاف:-

- ألو أيوه يا ماما خلاص جبت الستاير اه نفس الألوان اللي اختارناها ودفعت باقي الفلوس خلاص بقي يا ماما هطلع أودهم الشقة وارجع البيت

كنت حاسة بفرحة وأنا طالعة شقتي أنا وسمير حبيبي كنت خايفة من الجواز والمسئولية بس كنت فرحانة شعور ميتوصفش

اخبط ولا اعملها ليه مفاجأة لا هعملها له مفاجأة

قمت بفتح الباب ببطء شديد وتركته مفتوح وضعت الستائر على الأريكة أخذت ابحث عنه بعيني في الشقة حتى سمعت صوت يأتي من غرفة النوم

- أنت قفلت الباب ليه الدنيا حر

- أصل أنا بعشق الأماكن المغلقة تعالي بس هقولك

وقفت أمام الباب مذهولة استجمعت قوتي لأفتح الباب.. لينتفض هو وتلك العاهرة:

- نسيم أنتي بتعملي أيه هنا بصي افهميني هشرحلك الموضوع مش زي ما أنتي فاهمة

تسمرت عيني على مسدسه الميري.. فلم أعد إلى وعيي إلا بعد ما أفرغت طلقاته التسعة بجسده ولم أعد استطيع التحرك سمير ملقى يغرق في الدماء وتلك الغانية تصرخ والجيران وهم يلتفون حولي.

***

تم إحالة نسيم إلي مستشفى الأمراض العقلية وفقا لحكم المحكمة بعد عرضها على الكمسيون الطبي

صدقيني يا مس هاجر أنا لو رجع بيا الزمن هقتله تاني وتالت لأنه قتلني وجبني هنا.

انصرفت نسيم بعدما استجابت لإلحاحي الدائم عليها.. أخبرتني بقصتها وسبب تحولها من ممرضة إلى نزيلة بذلك المشفى.. تركتني وذهبت لتغفو على ذلك السرير وفوق رأسها تلك الجملة التي لم اهتم بها في الصباح والتي تقول:

"كنا بخير لولا أحدهم"

3- وردة

سلمى وليد

مزيكا؟، مستغربة أني لسه فاكر صح؟

قال جملته وظهره لها ويقوم بتنظيف أسطوانة الجرامافون فلطالما فضلها لأنها تعطي صوتا أنقى، وأكمل كلامه متنهدا:

- أنا منستش أي حاجه تخصك أو كانت بينا في يوم لسه فاكر ريحتك وضحكتك ومشيتك وبحس بمسكة أيدك في أيدي حتى وأنتي بعيده عني.

استحال عشقه في التنهيد لغضب جم.. فالتفت إليها لأول مرة ترى وجهه وتعلم عنه ذاته، لم تتخيل أن يكون هو ولا أن يجتمعوا ولا حتى صدفه.. قطع تفكيرها بصوته الذي تحول من الوداعة إلى الغضب صارخا:

- مكنش ينفع تسيبيني برضو وتبعدي بالمنظر ده، عاجبك اللي إحنا فيه دلوقتى وكل واحد بعيد عن التاني وبنتعذب بسبب الفراق اللي إحنا فيه؟

أمسك جريدة تحمل عنوان اليوم.."إذا فهو يخرج من وقت للآخر" هكذا حدثت ذاتها قبل أن يقطع أفكارها قائلا:

- تخيلي كاتبين عنك في الجرايد بالمانشيت العريض.. "الدكتورة النفسية المشهورة نسمة أبو العلا تم اختطافها منذ ما يقرب 52 ساعة".

ثُم راح يَصرُخ غاضِبَا ملقيا الأوراق على الأرض من غضبه وكأن ثورا رأى قماشته الحمراء فأثار جنونه فصرخ قَبل أن يَهدأ عاشِقاً:

- أغبية كتبوا اسمك غلط أنتي وردة اسمك وردة.. تخيلي مسمينه خطف!، بس نوعا ما كلامهم صح.. أنتي خطفتيني.

قال جُملَتَهُ الأخيرة وهو يُرَتب خُصلات شَعرِها الأحمَر المُجَعَد اللاصِق بوَجهِها مِن دِموعِها الغَزيرة وفي الخَلفية أم كلثوم تَنُدب لقَلبِها قائِلة:

"يا قلبي آه الحُب وراه اشجان وألم واندم واتوب وعلى المكتوب ميفيدش ندم".

فراح يُغني عَاليًا مُبتَعِدًا عَنها ليَجلِس على الكُرسي المُقابِل لها مُلاصِقًا للحائط جَلَس حتى انتهى المقطَع وبدأت تُطرِبَه الست بمقطع آخر فنَظَر لها وعَيناه تَلمَعان جُنونًا ووَلَهُه المَريض بوردَتِه الحَمراء قائِلًا:

- الست بتقولك ميفدش ندم، بس أنا عمري مندمت على أني حبيتك بالعكس أنتي خليتي دنيتي أحلى؛ بصي جبتلك أيه ورد أحمر زيك ولو أنك أحلى من كل الورد الأحمر.

كان وَقتَها راكِعًا أمام كُرسيها مُمسِكًا ببوكيه الورد واضِعًا كَفَه على وجنتيها كما تمنى مُنذ أمد أن يَشعر بحرارة خديها الورديين المنتفخين، فسَرِح فيهما مغنيًا "يا قلبي آه".

- يا قلبي آه فعلا، أنا عمري مشوفت فجمالك، ممكن تبطلي عياط عشان خاطري؟.

ثم اتكأ على يَدَي كُرسيها قائِلاً:

- أنا هفكك دلوقتى بس ي حبيبتى؛ أقولك حبيبتي ولا وردة؟، أنتي كده كده حبيبتي ومفيش حاجة هتفرقنا إلا الموت.

احتَدَت نَبرَتِه في جملَتِه الأخيرة وكأن الجحيم اجتمع في عَينَيه والزبانية بنَبرَتِه ولكن سَريعًا ما لَبِث أن عاد لهيئَة الحَمَل الوَديع مَرّة أخرى قائِلاً:

- أنا أسف أنا أسف أوي يا حبيبتي مش قصدي أخوفك، لما أشيل اللزق متصوتيش لأن ممنوش فايدة كده كده إحنا في حتة مهجورة ومحدش هيسمعك اتفقنا؟.

قامَت بإماء رأسِها موافِقة وعَيناها تكاد تكونان نفس لَون الورد الأحمَر المُسجي على قدميها مَجني عَلَيه مِثلها تمامًا راسِخين لأمره، لا حَول لَهُما ولا قوة، فتَنزِف هي دموعًا وينزف ورده حُزنًا على حالِها، يُطِيعان أمرِه فلم يتحرَك مِن عليها ولم تَنطق هي بصُراخ ولكن أبت دموعها إلا تَصرُخ.

ظَلت تنظُر إليه بشرودِها البَاكي، تَنظُر لعَينَيه الحامِلة لمعاني الجُنون والوَلَه المَريض لتَنطِق لأول مَرة مُنذ أن أتَت قائلة:

- عَمار، أنت جايبني هنا ليه؟ عايز مني أيه!

- صوتك وحشني ي وردة، هنا مش هيعرفوا يفرقونا تاني ي حبيبتي خلاص متخافيش هنفضل سوا طول العمر، أنا هطلع اجيبلك أكل يا حبيبتي

وردة: عمار أنت عارف أن مفيش حاجة حصلت بينا من الكلام اللي أنت قولته!

ولكن هيهات مر من الباب صافعا إياه وكأنه يغطي على صوتها لا يريد أن ينكر كذبة عقله التي اخترعها.

تتردد أمامه إحدى ذكرياته الحقيقية ولو أن الأمر اختلط في عقله بين الحقيقة والخيال.

***

علي الجانب الآخر من نفس البلد، وعلى جانب مختلف تماما كان يجلس الرائد "وائل منصور" وأمامه زوج الطبيبة "عمرو" لم يتخط الخامسة والثلاثين بعد من عمره ولكنه اكتسب وقارا لا يمتلكه أبا شيخا في عقده السادس، ولكن عجبا كم يمكن للغضب أن يضيع الإنسان ليس وقاره فقط.. فقد ضاع عمرو بأكمله عندما هب واقفًا أمام الرائد صارخا في وجهه:

- يعني أيه التهريج ده! ؛ يعني أيه مراتي مختفية بقالها أكتر من يومين ومحدش عارف يلاقيها.

لم يأت رد الرائد المباشر كلاما ولكنه أتى على شكل هدوء أعصاب في إشعال سيجارة بإحدى الولاعات ذات الغطاء قد أهدتها له زوجته في عيد ميلاده السابق، تسبب هدوء الرائد في جنون "عمرو" فأكمل نوبة غضبه قائلاً:-

- أنت بني آدم بارد يا أخي

جاءت هذه الجملة من فم عمرو المشمئز من مظهر وائل وبروده وهو يضرب الولاعة بيده حتى تسقط أرضا، فنظر لها وائل نافثا دخان سيجارته ثم نظر إلى عمرو وهو ينهض من كرسيه قائلا:

- خلصت نوبة الغضب بتاعتك؟ أنت عارف أن لولا صحوبيتنا أنت المفروض تكون في السجن دلوقتي؟

- بذمتك ده رد ترده عليا في موقف زي ده!

- عمرو أنا مقدر حالتك بس أنت لازم تهدي أنا شغال على القضية بنفسي ومتنساش أني واكل عيش وملح في بيتكم يعني نسمة كأنها أختي بالظبط بس العصبية مش هتحل أي حاجة.. الحل هو العقل

صرخ عمرو غاضبا:

- وحياه أمك! وإحنا عملنا أيه بالعقل اليومين اللي فاتوا؟ أنا مش عارف أقول أيه لبنتي يا وائل! اقولها امك اتخطفت واني معرفتش احميها واني مش قد الثقة اللي أمك حطيتها فيا يوم متجوزتني!!

- وهترجعلك بس لازم نصبر ونهدي عشان نعرف نفكر، أطلبلك قهوة مظبوط مش كده

زفر عمرو ضيقًا قبل أن يومأ رأسه بالموافقة على اقتراح صديقه الذي استكمل الكلام قائلاً:-

- دلوقتي بقا يا سيدي اقعد عشان عايز اسألك شوية أسئلة كده روتينية شوية لازم أعرفها عشان تقريبا وصلت لحاجة

تبدلت ملامح عمرو وارتسمت اللهفة عليها وهو يقول:

- خير يا وائل في أيه!

- نسمة قبل كده حكيتلك عن حالة من مرضاها أو حالة صعبة عليها خليتها متوترة؟

- نسمة مش من عوايدها تتكلم عن مرضاها طبعا، كانت تقول حاله صعبة أو سهلة.

- بس لكل قاعدة شواذها فكر كده كويس وأنا اوعدك أن الكلام اللي هتقوله مش هذكره في المحضر لو خايف عليها.

- هي ساعات كانت بتحكيلي لو الحالة غريبة عليها كنوع من الفضفضة لكن مش بتفاصيل أوي

- أيه هي الحالات دي؟

عقد عمرو حاجبيه وكأنه يعتصر الذاكرة، ظلت الذكريات تعصف بعينيه حتى توقف بسفينة العقل عند تلك الحالة، ليعيد النظر إلى صديقه قائلاً:-

- اغرب حالة حكيتلي عنها واحد كان عارف أنه عايش في وهم وبيحاول يحاربه بس حصل حاجه خليتها تحول المريض لدكتور تاني بس عمرها ما قالتلي حصل ايه قالتلي إنها أصعب من أن تقدر تتعامل معاها ومش عيب أن الإنسان يعرف قدره وقدرته

- والحالة دي من قد أيه؟

- 3 سنين تقريبا

- يبقا أنا ماشي صح

"حبيبتي أنا جبتلك الأكل"

كان الصمت يعم بالغرفة أكثر من أذني رجل أصم، كرسي اكتع القدم وشباك اعور القفل وورد مبعثر الأوراق داميا على الأرض، تتركه وتذهب لا تعلم عددا لهذه المرات ولكنها تركته.

إذن مرحبا بالزبانية بعينيه، أهلا بالجنون، ها قد اشتعلت عيناه غضبًا فجحظت وكأنهما قد رفضا مقربهما.. لهثت أنفاسه وتسارعت دقات قلبه وبدأت تلك الزمجرة بالخروج قبل أن يتحدث ذلك الصوت الأجش صارخاً:-

- هنقتلها.

عمار:- مقدرش أنا بحبها.

- أنا سايبك تتعامل فحياتك بس المره دي أنا اللي هتصرف

-أطلق الآخر آخر حروفه وهو يسحب مسدسه ويجهزه.

عمار: أرجوك أنا بحبها.

-أنت اهبل وهبلك ده اللي ودانا فداهيه.

خرجا مسرعين من المنزل يركضان لم يكن بمقدورها أن تبتعد كثيرا، أما عمار والآخر فقد وجدا ضالتهما فركضا تجاهها أحدهما يمني النفس باقتلاع عنقها والآخر يترجاه بألا يفعل فاجتمع كلاهما على صرخة من فم من يراه الجميع مذنب وهو ضحية نفسه لتتردد صدى صرخته بأرجاء الفراغ المحيط قائلاً:

- وردة.. لاقيتك يا وردة.

دموعها تنهمر تكاد تعميها تلفتت رغما عنها، كانت تعلم أنه ليس من المفترض أن تلتفت ولكنها فعلت فخذلتها خطواتها وكأنها تعاقبها على غبائها، فسقطت أرضًا كفريسة لا مفر لها من مخالبه.. اقترب منها عمار

شاهرًا مسدسه.. رأت بعينيه دموعًا تختلط بالشرار فعلمت أنها النهاية.. ولكنها قررت المحاولة، فتحدث والفزع يمتلكها قائلة:

- عمار أرجوك أنت لازم تفهم أنا مش وردة ولا حبيبتك سيبني امشي.

- مش هتروحي مني، مش هسيبك يا وردة.

- عمار أنا نسمة، نسمة ابو العلا دكتورتك النفسية أنا مش وردة.

جثا على ركبتيه مبتسمًا بأسى وبدأ بتحريك يده تدريجياً، فظنت أنه سيداعب وجنتيها كما يحب دائما، ولكنه رفع يديه لأعلى وصفعها بقوة.

صفعة كانت أم رعد يصرخ في السماء؟.. دوت شهقاتها بذلك المكان المهجور قبل أن يجذبها من شعرها الأحمر مساعدًا إياها على الوقوف وهو يتحدث ومن قبل صوته عيناه:

- أنتي وردة وردتي الحمرا ولو مش هتبقي معايا مش هتبقي.

انهي جملته مشيرا لقلبها بمسدسه لتصرخ دموعها قبل لسانها:

- عمار بلاش تعمل حاجه مجنونة.

- قولتلك أنتي حبيبتي ومفيش حاجة هتفرقنا إلا الموت يا وردة.

***

ظهر لمعان الحماس باديا على وجه الزوج المكلوم وكأنه وجد شعاع الشمس بعد سنين من الظلام، فوجد الأمل وما أصعبه من سلاح، فتحدث الرائد والأمل يغزو كلماته قائلا:-

- لما فتشت مكتب نسمة لقيت رف للحالات الغريبة واللي حولتها، مكانوش كتير حوالي 10 سمعت تسجيلاتهم ورسيت على واحد "عمار الديب" وفي تسجيل لازم تسمعه.

أنهى الرائد وائل حديثه.. قبل أن يضغط أزرار المسجل ليبدأ صوتها الذي اشتاق إليه "عمرو" بالحديث محاورًا عمار:-

نسمة: أزيك النهاردة يا عمار.

عمار: ازيي بحبك، وعامل أيه بموت فيكي.. وأخباري أني بعشقك يا وردة.. سامحيني بقى وتعالي نرجع لحياتنا

نسمة: أنا فهمتك أن كل ده وهم.

عمار: بس أنتي مش وهم يا وردة ومش هتبقي لغيري لو حصل أيه.

انتهى الحوار بينهما على تلك الكلمات قبل أن يبدأ صوت الطبيبة العذب بالحديث:-

"تقييم الجلسة الأخيرة: عمار أصبح متوهما بيا واخترعلي اسم وشخصية وأحداث في دماغه بيعوض بيها شيء مش عارفة أوصله، سماني وردة بسبب شعري الأحمر زي ما ذكرت في التسجيلات قبل كده.

بقالي مع عمار سنة بحاول أعالجه وللأسف يئست؛ وقررت بعد جلسة النهاردة أحول عمار لطبيب تاني"

وائل: فهمت ليه مقالتلكش وفهمت ليه أنا شاكك فيه؟

تحولت لمعه الأمل لغضب مشوب بالحزن قائلا: وهنعمل أيه دلوقتي؟، وائل أنا عايزه ميت.

- وهيبقى بس بالقانون أنا عرفت أوصل لشقة في حتة مهجورة أكيد أخدها هناك هطلع إذن النيابة ونروح حالا.

***

شقة فارغة لا تحتوي على شيء سوى الفراغ لم يجدوا أي بصمات أو أشخاص والشقة ليست مسجلة باسمه فقد بيعت منذ الأسبوعين ومكانها مجهول فأمر الرائد أن يبحث رجاله حول المنزل، كل شيء بها

مغلق بأقفال وبأحد الغرف كسر قفل الشرفة إذا لابد أنها كانت هنا ولكن أين ذهبا، هكذا حدث وائل نفسه وقاطع افكاره عسكري: لقينا جثة.

لم يكن وقع الكلمات طيبا على أي منهما ولا تقرير الطبيب الشرعي ففقد نالت الضحية نسمة ابو العلا المتعرف على هويتها من قبل زوجها عمرو سامح برصاصتين في القلب المسافة بينهما 3ملي أدتا إلى الوفاة المباشرة للضحية.

كانت مراسم الدفن جميلة وقبرها كان أجمل ولكن الحزن لم يكن كذلك فقد صدم الخبر الجميع ولم تستطع الصغيرة استيعابه فسألت أباها الباكي وهو ممسكا يديها: هو ماما كده مش هترجع تاني؟

فلم يكن من أبيها إلا أنه احتضنها وأجهش بالبكاء كنهر لا ينضب مصدره أبدا.

وعند ذهاب الجميع أتي هو ليقف على قبرها كوحشٍ يبكي على فراق ضحيته، أو ضحية تندب لموت مفترسها قائلاً:

أنتي اللي خلتيني أعمل كده، أنتي السبب قولتلك متسبينيش بس مبتسمعيش الكلام يا وردة بس عرفت دلوقتي انك كنتي بتحبيني فسبتيلي وردة شبهك تانية مكانك؛ مسيرها تبقى بتاعتي وأنا متأكد أنها مش هتسيبني زيك.

ثم قام بوضع وردة حمراء على القبر التفت يلوح بيديه للصغيرة وكأنه يوعدها: هتكونيلي يا غسق.

***

4- كلبتومانيا المشاعر

إسراء عطية

غرفة تُزين تفاصيلها اللون الأخضر يجلس طبيب في الأربعين من عُمرهِ يبدو عليه الوسامة يضع يديه خلف رأسه، يبدو عليه الإرهاق، أحمرت عيناه من كثرة الأرق يشعر بذلك الألم برأسه يكاد يفجرها، من كثرة ما سمع من مشاكل شرد للحظة في إنهاكه كُل ليلة، قبل أن يقول مُحدثًا نفسه:

- عجبًا ممن يتوجهون إلى كلية الطب يتخصصون بالطب النفسي، تسمعهم يقولون أحب سماع المرضى فأجد لهم الحل.. هه.. في مقابل ذلك عقل قد ضمر من كثرة التفكير والمعاناة، التأثر بمرضاي بكائي معهم وسعادتي بشفائهم، أضع نفسي مكانهم وكأنني أنا المريض وأنا الدواء، كم من مرة تقمصت شخصية مريض وأذيت بها زوجتي، ولكن في النهاية أحب هذا التخصص.

قطع شروده دخول مُساعدته إلى غرفة مكتبه وكأنها جاءت لتسقطه من صخرته إلى ملاقيه عندما قالت:

- دكتور خالد يوجد مريض بالخارج آتى الآن يبدو عليه التوتر ويريد مقابلتك.

زفر خالد بضيق قبل أن يتحدث بنبرة غاضبة:

- يأتي غدا سارة أنا مُرهق بالفعل

تنحنحت قائلة:

- أعلم ولكن هو يحتاج لك، أعلم منه ما به واجعله يأتي بالغد، أشعر أنك ملجأه الآن أستاذ خالد

نظر لها بريبة وكأنه أعطاها مالا لتقول هذا الكلام فهي كل مرة تقول هاتين الجملتين المعتادتين فقال بعقله:

-هنيئًا لمن يريد التخصص في الطب النفسي، بل هنيئًا لمن يريد العمل..

أشار لها بنفاد صبر بأن تجعله يدخل فقالت بابتسامه انتصار:

- أستاذ حازم المغربي تفضل الدكتور منتظر حضرتك.

ولج إلى الغرفة رجل قد غمر الحزن عينيه مهمل الهيئة قصير القامة بدأ في الدخول مصافحًا الطبيب ثم هم بالجلوس، بدأ الطبيب ممارسة هوايته المفضلة فهو يفضل تفحص ملامح مرضاه وملاحظة الإشارات الجسدية الصادرة عن أجسادهم دون إرادتهم فمازال المريض صامتا يهز ساقه وكأنه يسابق فريسته لا يعرف كيف يبدأ الحديث تدور بعقله أسئلة..

- ما الذي جاء بي إلى هنا؟!.. .. هنا يُعالج المجانين، أمجنون أنت؟

نظر إليه الطبيب متفهمًا وكأنه ينصت إلى تلك الأسئلة، فقرر قطع الصمت قائلا:

- تريد أن تشرب شيئا لتهدأ قليلا؟

عدّل المريض من وضع نظارته الطبية ومرر يده على صلعته وكأنه توجس ابيضاض شعره المفقود من شدة الخجل، أعاد الطبيب الحديث بنبرة هادئة محاولا بث الطمأنينة بمريضة قائلا:

-هذه ليست بمصحة وأعتقد أن خوفك هذا ليس له داع، جميعنا مرضى نفسيين وأنا أولهم، ولكن الشجاع فقط من يعترف بمرضه.

بدأت علامات الارتياح بالتسرب إلى ملامح حازم ليقول بارتباك:

-أعلم هذا ولكنني

- ما بك؟.. ثق بالكلام معي وحديثك معي لن يعرفه أحد فلك خصوصيتك فقط عليك الحديث حتى أفهم ما بك.

ترك الطبيب مقعده واستدار حول مكتبه الخشبي ليجلس أمام مريضه بلطف قائلا:

- مجيئك إلى هنا أول طبقات درج العلاج، جلس مكانك الكثير من المرضى وهم الآن يعيشون الحياة بشكل طبيعي.

تجاهل "حازم" حديث طبيبه وما زال يتحدث مع عقله وكأن عقله أصبح وحوشًا برية تريد أن تسفكه دمًا، شعر بتلك الضوضاء الصاخبة بعقله ليقطعها غاضبًا وهو يصيح:

- أنا خائن!

نظر له الطبيب بدهشة فليست الدهشة في اعترافه بالخيانة بل الدهشة اقتناعه بأنه مريض ولابد الشفاء منه تابع الطبيب حديث مريضه الذي أكمله قائلا:

. أحبها، ولكنني أشعر بالاحتياج دائما لا أقول إنها لا تلبي احتياجي ولكن ما زلت أشعر به مثل ما أشعر بحريتي عندما أكون مع امرأة غيرها، لا أعلم أن كنت مريضًا أم هذا أمر طبيعي ولكن ما يؤلمني هو جلد الذات ذلك الشعور هو ما أتى بي إلى هنا.

. أتحبك؟

عدّل من وضع نظارته مبتسمًا بيأس:

. كانت تحبني ولكنها ملّت، هي ملّت ولكني ما زلت بحاجه إليها.

أمسك الطبيب بدفتره ليدون كلامه قبل أن يلقي عليه بسؤال:

. أشعرتُ بجلد الذات وأنت معها؟

ازدادت هزاته لساقه، وأمسك دبلته يحاول إخراجها وإدخالها بأصبعه عدة مرات وتكرارًا قبل أن يقول:

. نعم وكنت أصارحها حتى أهدأ، هي تعفو عني كثيرا وأنا أعدها بأنها آخر مرة ولكني أخلف بوعدي واستمر بخيانتها وعندما يهاجمني جلد الذات لا أجد وسيلة سوى الاعتراف لها فيزداد الجفاء ولكنها ملت وأنا أيضا مللت

. كيف تشعر عندما تكون مع امرأة غير زوجتك

. الحرية

أمسك الطبيب بقلمه وبدأ يكتب تلك الكلمات "ملل، احتياج، الحرية" محيطا كل منهن بدائرة

ليقاطعه المريض بتوتر متوسلا:

. أرجوك ساعدني

عاد الطبيب إلى كرسيه الجلدي ليقول بهدوء:

. جئت إلى هنا تريد الحل، لن أعطيك دواء فتتوقف خيانتك، ليس الأمر بهذه السهولة عليك بالمثابرة لتنال مرادك، لابد أن تحارب ذلك الشيطان الكامن بداخلك، يروضك بكل مرة خُنت بها وعليك الآن ترويضه.

توقفت هزات ساقه وهدئ قليلا قبل أن يبدأ بالحديث:

. ماذا علي أن أفعل؟

. أن تشعر بهذه الحرية مع زوجتك

. هي لا تحبني

. وماذا لو جعلتها تحبك مثل ما فعلت من قبل؟

.لن استطيع فهي قد ملّت

.تقصد أن انهارها بك قد انطفئ ولكن عليك إشعاله من جديد.

نظر إليه بحزن:

.ماذا علي أن أفعل أنا فعلت كل ما استطيع ولكنني يئست، حتى..

. حتى جئتُ إلى هنا حتى أعطيك الدواء لتتوقف عن الخيانة، أصحيح؟

لم يجب المريض ليُكمل خالد حديثه:.

. أنت لست بحاجة إلى أدوية كل ما عليك هو محاولتك في تحسين العلاقة، وسيطرتك على شيطانك، عيادتي مفتوحة لك إذا أحببت المجيء مرة ثانية، اتفقنا؟

أنهى حواره مع المريض الذي انصرف، وبدأ ينظر إلى ما دوّنه بتعجب بدأ في شروده وهو يحاور عقله "الخيانة " مرض معترف أنه مرض هو حرمان عاطفي ناتج من عدة أسباب ومن أهمها ما قاله "حازم" ولكن الرجال جميعهم خائنون، أجل هو آتى لشعوره بالندم ولكن هناك شيء ما ينقص اللوحة بالخيانة مثل ما هي نشوة ولكن في النهاية تؤدي إلى الملل، فلماذا لم يُمَل؟، كيف استمر بنشوته؟"

قطع شروده دخول مُساعدته تُبشره بأنه انتهى من كشف المرضى فأخذ دفتره متجهًا إلى المنزل.

***

ولج إلى منزله متثائبًا محاربًا هجمات الإرهاق، وما أن ألقى السلام عليها حتى هبت زوجته لتحتضنه مُرحبَة به قائلة:

.تأخرت اليوم حبيبي، انتظرتك كثيرا

قبل وجنتيها متجهًا للأريكة:

. آسف حبيبتي العمل شاق اليوم

نهضت وهي تقول:

. سوف آتي بالطعام

جذب يديها:

. لا أجلسي، أود الحديث معكِ

. ماذا؟

خلع حذاءه وعلى وجهه علامات الاندهاش:

. جاءني شخص بالعيادة مريض بالخيانة.

حدقت بعينيه ليُكمل:

. يشعر بالندم ويريد العلاج

رفعت حاجبيها ذهولا:

. لم ارَ رجالا تفعل ذلك في هذا الزمن، ماذا فعلت له

. تحدثت معه ولكن أنا لا أفهم، لِماذا لم يمل من عادته للخيانة كان يبرر بأن الملل والاحتياج هما من هدّا ذلك السور

. وما رأيك أنت؟

. هناك سبب ثالث علي علمه، أنا مرهق كثيرا أود النوم

. والطعام؟

وضع يده على فمه وهو يتثاءب:

. أريد النوم فقط

تنحنحت إليه وصوتها قد تغير إلى طفلة في السادسة من عمرها:

. أتخونني مثله؟

ما زال يتثاءب مجيبا لها:

. بالطبع حبيبتي

ليجد وسادة برأسه مُلقاة بغضب:

. آه، تألمت لو تعلمين

اتجه ناحيتها ممسكًا بوجنتيها بابتسامته المرحة:

. لو نساء العالمين أحبوني سأحبك أنتِ دائما مليكة.

كان مراده للنوم ولكن لم يأتِ إلا بعد ساعتين من التفكير في أمر هذا المريض وجرأته وحبه لزوجته فشرد قليلا "لو الخيانة تأتي بالملل والاحتياج لكان رجال العالمين خانوا زوجاتهم، لا يوجد حب بدون الملل والاحتياج، الحرية ليست بنشوة هي فقط شعور يأتي عندما نتقيد، الرجل هيئته لن تجعل أي امرأة تقبل به كيف يتسلل إليهم، كان من الممكن أن فترة الملل والاحتياج تذهب ويعودوا إلى طبيعتهم" قطع شروده مليكه تُملس على شعره بلطف:

. بماذا تفكر؟

. لا أعرف

ما زالت تُملس ومن ثم تشد شعره بعنف:

. تفكر بها، اتخونني؟

. آه، ألم تملِ من هذا الحديث حبيبتي، أنا مللت

انتهيا من الحديث كانت ليلة طويلة عليه يمتلئ عقله بالأفكار والأسباب حتى عفا عنه عقله وجعله يذهب إلى ملاقيه حيث النوم.

استيقظ على صوت"مليكة" تشده من لحيته السوداء محاولة استيقاظه فهذه طريقتها المسلية في استيقاظها لخالد، نظر لها بغضب

ممزوجًا بما بقى من كلامها ليلة أمس.. ولكنه كالعادة لم يستطع إلا مجاراتها في مشاكساتها المرحة، تناول إفطارها حتى لا يغضبها ولكنه ما يهمه من كل هذا فنجان القهوة الذي لم تنجح في فعله ولكنه لا يريد خذلانها، اتجه للمكتب يطلب من"سارة" أن تحضر إليه المواعيد والحالات المرضية فيجد أن حازم من ضمنهم اليوم فابتسم أنه حجز ميعادا وسيأتي بدأ الكشف على المرضى وهو ما يشغله قضية حازم حتى جاء عليه الدور فيدخل وما زالت الابتسامة مغتربة عن وجنتيه، بدأ في الجلوس وعيناه تملأها نظرات فقدان الأمل عندما قال:

. لم استطع سعادتها، حاولت ولكنها حتما تبتعد، جئت لها بفستان تحضر به مناسبة صديقتها رفضت أن أذهب معها وتحججت وقررت الذهاب مع أصدقائها، تريد الهروب مني وأنا احتاجها

. لماذا هي؟

بدأ يلعب بدبلته ويخرجها ويدخلها مرارا وتكرارا، قبل أن يجيب:

. الوحيدة التي لم استطع أن املك قلبها للأبد

حدق إليه خالد باستفهام.. فاستكمل المريض حديثه مفسرًا حديثه:

. لا استطيع أن أملك مشاعرها مثل ما فعلت مع أي سيدة وجدتها

. تقصد أن تملكها؟

اعتدل بمقعده تاركًا دبلته ولمعت عيناه بنظرة بها كثير من السيطرة، تغير وجهه إلى العظمة بعد الخزي نظر إلى"خالد" بحماس ليتحدث بكلمات ملهوفة:

. أقصد سرقة مشاعرها

. ماذا؟

تجاهل سؤاله وكأنه لم يسأل فأكمل حديثه بابتسامة عارمة

. احتياجي هو السرقة، إخضاعها إليّ مثل كل شيء مادي أملكه، تصبح مشاعرها مكبلة بي لا يملكها غيري، أرى المرأة كمثل طفل صغير يرى دُميته وعنده الفضول ليملكها ثم يُمل منها، فكل سيدة رأيتها وأقمت معها علاقة كنت أسرق مشاعرها إليّ كانت توهب إليّ كل ما أريده عندما أسرقها دون أن تشعر، بعدما أحست زوجتي بأنني أريد سرقة مشاعرها بعدت عني ولا أعرف السبب، أنا أحبها ولكن إذ لم توهب إليّ مشاعرها فلمن ستوهب؟

شرد الطبيب للحظة فقطعه "حازم" بلهفته:

. اتفهمني؟

. نعم ولكن هي وهبتها لك منذ رأتك فهي زوجتك!

اعتدل في جلسته وعاد إلى حزنه:

. لا لا فهي تحتفظ بجزء خاص أريد اختلاسه

. وحينها ستجدها مثل باقي السيدات؟

غضب قليلا:

. لم تقول هذا؟، هي زوجتي، هن عاهرات

نظر الطبيب لعينيه بمكر:

. علمت، أستاذ حازم حضرتك تخون من أجل السرقة، ترى سرقة المشاعر شيء باهظ وزوجتك لم تلبي لك هذا الاحتياج فأردت أن تسرقه من السيدات في طموحك لتعويض هذا، أليس كذلك؟

ابتسم إلى الطبيب بإعجاب يجيب بلهفه:

. فهمتني، ماذا على أن أفعل الآن

مسك بدفتره يكتب ما يفهمه ليقول بوضوح:

. التحكم، بمعنى أنه عليك بسيطرتك لنفسك لشيئين أمر خيانتك والتأكد من أنك سوف تحظى بقلب زوجتك، أخشى أن أجرح مشاعرك ولكن أنت ليس بمريض الخيانة أنت مريض بالسرقة..

. جلدي لذاتي يرهقني كثيرًا

. أعلم، ولكن المحاولة هي سر النجاح، حتى تحظ بقلبها عليك بالمحاولة اتفهم؟

***

بعد طابور من المرضى المتهافتين على عيادته، وجد مساحة من الوقت فأراح "خالد" رأسه على مكتبه الخشبي ليهزمه النعاس، تدخل المُساعدة محضره فنجان القهوة تضعه برفق محاوله ألا يستيقظ جاءت لتخرج لتجد"مليكة" ابتسمت لها تقول بهدوء:

. إنه نائم، أقول له أنكِ جئتِ؟

نظرت لها بغضب لتجيب:

. لا سأدخل أنا

ثم تركتها لتدخل عليه فتجده في سبات ملست على شعره برفق قبل أن تقول:

. استيقظ فقد اشتقت إليك

فتح عينيه المليئة بالإرهاق وهو ينظر إليها وكأنه يتساءل عن مكان وجوده لتستكمل هي حديثها:

. لما لا تذهب للبيت الوقت تأخر، تنام بالمكتب ومساعدتك بالخارج؟

. أتخونني معها؟؟؟

رفع حاجبيه لينهض ويرتدي معطفه لتُكمل:

. أنت تخونني معها مثل ما أقرأ في الروايات وأشاهد الأفلام، يقع الطبيب في حب مُساعدته وتبدأ قصة حب بدون علم زوجته

قبل وجنتيها قبل أن يرد عليها بلهجة المُعتاد على تلك الحوارات:

. أنتِ على حق، سنتنزه اليوم مكافأة على خيانتي.

مسك يديها متجهًا للباب ليفتحه فجأة، فيجد سارة منصته لحديثهم من خلف الباب، صاحت مليكة بذعر:

. ماذا تفعلي أنتي؟!

توترت سارة لتقول بكلمات مرتجفة:

. كنت فقط أفتح الباب لأقول لدكتور خالد بأنني سأرحل

تدخل خالد بحزم:

. سنتحاسب بوقت آخر، علينا بالذهاب مليكة

تركت يده بقوة وبصوت غاضب تلقي حديثها:

. لا يا خالد.. حسابها هو الآن عليها الرحيل للأبد ولا تأتي إلى هنا

. ولكني احتاجها مليكة، لم أجد مساعدة بوقت قصير والعمل كثير!!

نظرت بغضب له:

. قلت لك أنها ستترك العمل، كيف لك أن تأمن لامرأة تتعمد على سماعنا من خلف الباب

بات عليه الغضب نظر لمليكة بنظرات قاسية في تلك اللحظة التي يقول بها المساعدة:

. أذهبي الآن سارة وعملك بالغد أما ما فعلتيه ستلقى جزاءه

في ذلك الوقت كانت سارة تبكي بحرقة تحاول الدفاع عن نفسها ولكن بلا جدوى محاولة استعطاف مليكة ولكن مليكة في ذلك الوقت

كان شرارة غضب تريد عود ثقاب لتحرقهم جميعا، نظرت له مليكة بتحد:

. لو بقيت سارة سأرحل أنا، هذا آخر حديثي وأفعل ما شئت

أنهت جملتها وتوجهت للخروج فأشار خالد لسارة بأن تذهب الآن ثم ذهب ليلحق مليكة محاولا توقيفها بالطريق:

. مليكة، كيف عليكِ أن تقسي علي هكذا، أنتِ تعلمين أنني أحبك ولم استطع خيانتك، ولكن احتاجها بالعمل.

. جعلتها تنتصر عملك هو المهم.. أما زوجتك فلا؟!

تركته مليكة لتوقف وسيلة مواصلات وتقول متحكمة بصوتها:

. سأذهب لأمي، لا تحاول الاتصال بي.

ولج المنزل وكأن حزنه هو من أضاء البيت بسواد، جلس متنهدًا ووجهه مطبوع بالحزن يتفقد أنحاء البيت متذكرًا غيرتها عليه، سخافتها التي يحبها، لم يفعل شيئا سوى النوم الذي أتاه بعد محاولات عديدة، ليهزمه النعاس بمساعدة الحزن الدفين بقلبه.

***

استيقظ من النوم وغادر فراشه، ولكن الحزن لم يغادره.. توجه إلى عيادته عاقدًا حاجبيه ليجد مساعدته "سارة" وعينيها تمتلئ بكثرة الدموع لتقول وهي ترتجف:

. آسفة

لم ينظر إليها وبدأ يتحدث بنبرة بها بعض الحزم:

. فعلتك هذه، جعلتني أخسر زوجتي، لم أريد منك أن تبرري فعلتك، أرسلي لي كشوفات اليوم وأرسليلي أول مريض

تنحنحت تنظر للأرض لتقول:

. ولكني أحبك.

سقط ذلك الخبر كالمطرقة على رأسه، ففقد القدرة على الكلام واكتفى بالنظر إليها مذهولاً.. قبل أن يبدأ بتمالك نفسه ويتساءل: ماذا؟!

. منذ عملت معك وأنت لم تذهب عن عقلي للحظة، أعلم أنك تحبها، ولكنها مشاعر لا ذنب لنا فيها توهب لأجل شخص ولا نستطيع العيش إلا بقربه مننا

نظر لدبلته المطبوعة عليها اسم زوجته نظر إليها مندهشًا بكلامها المماثل لكلام ذلك المريض قبل أن يستعيد زمام ثقته المعهودة بنفسه ليتحدث بهدوء:

. أعلم ما تشعري به ولكنني لم استطع خيانتها، آسف لمشاعرك ولكن تلك المشاعر لا تخصني.

نظرت بحرقة لعينيه لتقول:

. أستاذة مليكة لديها الحق كان على ألا آتي مرة أخرى

همت بالخروج ليحاول خالد أن يوقفها فمسك بيدها رغما عنها قائلا:

. لو وددت أن تذهبي فأذهبي، ولكن انتظري حتى أجد شخصا بدلا منك.

دهشت عندما أمسك يدها، وبرغم رفضه لها ولكنها شعرت بقلبها يحلق في الهواء ابتسمت بالقبول وما زالت يده محتضنه يدها في اللحظة التي فُتح بها الباب وانطلق صوت قائلاً:

أين المساع.....

لينظر لهما فتشد يدها وتذهب للخارج مسرعة ليتابع "حازم" الكلام:

. آسف أن جئت في وقت غير مسموح به ولكني احتاجك ولم أجدها بالخارج

توتر الطبيب محاولا ترتيب حديثه:

. لا عليك أستاذ حازم، أهذا ميعادك؟

. أجل

***

بعد مرور ثلاثة أيام

يُزين هذه الكافتيريا صوت فيروز والحائط يُزينه موج البحر وكأن لطف العالم يتلخص بهذا المكان، تجلس سيده تداعب خصلات شعرها، مُمسكة بفنجان القهوة شاردة مع صوت الأغنية ليقطع شرودها صوت النادل الأجش:

. من الممكن أن تجلسي بالمنضدة المقابلة لأن تلك المنضدة بالفعل محجوزة لشخص يأت كل يوم في هذا الميعاد؟

كانت نظرات الغضب تفترس وجهها، أجابته وصوتها في أواخر غيظ:

. كيف لك أن تعكر مزاجي، لن أقوم، توجد أماكن أخرى اذهب الآن وإلا سأجعل مديرك يلقيك بالخارج.

كانت ستُكمل ولكن قاطعها صوته بهدوء محاولا تهدئة الموقف:

. أريدك أن تهدأي قليلا، ماذا حدث يا "شريف"

. أقول لها بأن حضرتك تحجز هذه الطاولة ولكنها ترفض القيام.

ابتسم قليلا ثم قال:

. ليس مهم بالمرة سأجلس بأي مكان، أنا أسف لك سيدتي

هدأت قليلا ثم ابتسمت بنظرات انتصار للنادل:

. لا عليك فهذا ليس خطأك

.. تسمحي لي بالجلوس معكِ؟

. بالتأكيد تفضل

. هذا مكانك المفضل؟

ابتسم رغما عن هيئته التي تدل على حزنه الشديد:

. أجل، انعزل هنا عن العالم بأكمله، احتسي فنجان القهوة وأخرج لأعود بشخصيتي بيتي.. حتى لا تختلط حياتي العملية بالمنزل.

. جيد، أنا آسفة ولكن هذه الطاولة الوحيدة التي أعجبتني مكانها متميز

. لا عليك شيء، فأنا مثلك تماما

. اسمي سجدة وأنت؟

. خالد، أحب هذا الاسم سجدة

ابتسمت وقد لمعت عيناها:

. شكرا لك، امتزوج؟

. نعم

ارتشفت سجده رشفة من قهوتها لتسأل باستنكار:

. عن حب؟

ابتسم ثم أخذ فنجانه من النادل ليجيب:

بالطبع، هي نعمتي التي أهداها إليّ الله, ولكنها ما زالت طفلة نتشاجر لأسباب بسيطة

ضحكت سجده قائلة:

. نحن السيدات عقولنا صغيرة ولكن عليك كسبها بأقل الطرق

. أعلم، ولكن تلك المرة تركت المنزل.

قالت سجده مستنكرة:

. ماذا حدث؟

تردد قليلا ليقول:

. قارنت نفسها بمُساعدتي، وتلك المقارنة غير صائبة فأنا احتاج مُساعدتي لكثرة العمل واحتاج زوجتي

. كان من الممكن أن تصنع خدعة، وترضي الطرفين

ما زال الحزن يسكن وجهه عندما قال:

. لا أعرف وقتها بماذا كنت أفعل

. أكل الحزن الغامر عينيك؟

نظر إليها والعين تدمع وكأن الفراق سم يقتلنا بوقتها، يقتل روحنا، يقتل عيوننا، دموعنا وقتها تفرز مادة تلهب بوجهنا وكأن الفراق أشبه بالنار

. هي من عادت إليّ الحياة مرة أخرى وتريد الآن أن تتركني وترحل، أيعقل هذا!

ضحكت سجدة ساخرة من نفسها وليس منه عندما قالت:

. كنت أود أن يحبني أحد مثلك، أمنيتي في الحياة أن أجد تلك الدموع التي تهاب الخروج وعندما تراني تُسرع إلي وتحتضنني، تحتضن خوفي، تشعرني بالأمان، أشفق أن زوجتك تركت الأمان ورحلت

. حقها سجده، أنا الخاطئ

تنهدت قبل أن تقول ودموعها تهبط منها كقطة ابتلعت أطفالها لتحميهم:

. أنت لست بخاطئ، نحن من نسخط على نعمنا، حتى أنا.. أسخط على زوجي برغم ما يقدم لي، كُلنا بكفة الظلم فالعدل أصبح العدو الحقيقي لنا.

تأثر بكلامها لينظر إلى عينيها ليجد شلال نيران تريد أن يطفئها أحدهم ليمسك بمنديل معطيًا لها قائلا:

. لا عليك بالبكاء، لا يفيد، يسقمنا فقط، سيدة جميلة مثلك السقم لها مرفوض، الله خلق النسيان لنكمل حياتنا، فقط أنسي، أتعلمين شعرك لطيف للغاية، ينقلنا إلى الهدوء، هيئتك تُنسب إلى ذلك المكان

داعبت خصلاتها وهي تبتسم تلك الابتسامة الساحرة لتقول:

. شكرًا دكتور خالد.

أنهى عمله ولا زال كلام تلك الفاتنة يتردد بأذنيه، هل من الممكن ألا يكون أخطأ بحق مليكة؟!.. لا.. ماذا لو كان هو بمحلها أكان سيقبل التبريرات؟.. ولكنها حتى لم تعطه فرصة للتبرير.. ظلت تلك الأسئلة تتصارع برأسه حتى أغمض عينيه مستسلمًا للنوم.

***

لم يحدث جديد كان شارد طول اليوم هلاوسه تقتل عقله، جنونه بدا الظهور عليه في تصرفاته، كان ينتهي من عمله للبيت لا يأكل سوى القليل ويكتفي بفنجان القهوة الذي يصنعه بنفسه فحتى الكافتيريا التي كان يهدأ بها لم يعد يذهب إليها فآخر مرة وجد سجدة تحدث معها، حاولت أن تنسيه بعض همومه ولكنها جاءت بسيرة مليكة فاختنق ورحل ولم يذهب بعد تهربا من سؤالها، أما مليكة فحاول في أن تعود ولكنها في كل مرة تقتله بالرفض فقرر أن يتركها لفترة تهدأ هي وهو أما سارة فما

زالت موجودة تنظر إليه بنظرات الحرمان والإشفاق على ما بدا عليه من حزن تحاول أن تخفف عنه ولكنه لا يقبل منها كلمة حتى لا تهيأ لنفسها أنه بدأ يحبها، تراقبه وعيناها تحتضنه كلما نظرت إليه ونظراته تخترق عينيها لتذهب روحها فتقتلها بسكين تلم، لا تريد أذيته ولا حتى بأن تجعله ينفصل فقط قد سلب منها مشاعرها، أما صديقنا المريض فيحاول في استرجاع حب زوجته، فتارة ينجح وتارة يتحطم فشله، الشك ملأ قلبه، أتخونني الآن؟، لم يحاول مواجهتها هو نفسه لا يعلم لماذا، من الممكن لأنه كان يخونها أو كان ينتظرها لتفصح هي مثلما كان يفعل.

يستيقظ من نومه في هذا الروتين الممل، والتحدث مع مرضاه ولو تعلمون فهو من يستحق أن يجد من يسمعه ما بين المريض والآخر كان يشرد للحظات وكأنه الفاصل الوحيد عن عالم الواقع بدأ بالاعتدال مع اسم المريض التالي لينظر في دفتره ويقول بصدر رحب محاولا ألا يبين شيئا مثلما يفعل مع كل مريض:

. أهلا بحضرتك، ما اسمك؟

. سجدة

ترك دفتره لينظر بعينيه لها مندهشا:

. سجده!!، ماذا تفعلين هنا؟؟

. مريضة؟

هدأ قليلا فقال بتوتر:

. أنا آسف، فلم يأتِ بي احتمال أن أجدك على هذا المقعد!

. لِم لا تأتي إلى الكافتيريا؟

. العمل يأخذ كل وقتي فلم أملك الوقت الكافي حتى أتي

نهضت من مقعدها بخفة متجهة له تسحبه:

. لا أحب جلسة المكاتب ولا العيادات، ماذا لو ذهبنا لنحتسي كوب القهوة بالكافتيريا؟

***

.وجع العالم يوجد بأعينك، ما بك؟

هكذا تساءلت "سجدة" بمجرد جلوسها معه، فتوتر قليلًا قبل أن يجيب:

.لا شيء، أنا بخير

نظر لها بتساؤل واندهاش:

.من أعطاكِ عنوان عيادتي

أمسكت فنجان القهوة بابتسامة:

.سألت النادل الذي كان يتشاجر معي

ضحك ساخرا:

.لو كنت مكانه لكنت جعلتك تذهبين في متاهة أبدية

علت ضحكاتها ووضعت فنجان القهوة مُمسكة بمنديل:

.قد حدث كثير في هذا الشهر دكتور

. أنتِ أيضا تناديني دكتور، تعالي إلى هنا بأي مرض أنتِ مريضة، أكانت خدعة؟

ضحكت ولكنها في تلك المرة أرادت جذبه وكأنها ماهرة في وقوع الرجال بضحكتها:

.أود القول إنه نعم

نظرت لعينيه بعينيها التي كانت مُسكنا له في تلك اللحظة، تُزينها بمستحضرات التجميل تفتنه بأحمر الشفاه وكأنها أرادت أن يهتز من مكانه لتقول:

. أشتقت إليك

نظر لها بذهول ينظر لشفتيها وهي ما زالت تتحدث:

. هذا الشهر كان بمثابة سنة طبيبي

مدت يديها لتحتضن يداها وشَعرِها يطير لأعينها فتضحك لتظهر تلك الغمازة التي جعلته يفتن بها

. ألم تشتاق إليّ!

نظر خالد ناحية الباب ليجدها "مليكة" تنظر إليه تشاهد خيانته، وقد ذبلت عيناها من كثرة البكاء فسحب يده من يد سجدة متجه ناحيتها قائلا بشوق وتوتر:

. مليكة!!!

نظرت له وعيناها تمتلئ بالدموع مجددًا تقول بكلمات مرتجفة:

. أتخونني مع هذه!، ورقة طلاقي تصل إليّ عند والدتي

تركتهم ودموعها كانت ملجأها الوحيد ظلت تهرول مسرعة لم تر من كثرة الدموع في تلك اللحظة التي نظر بها خالد لسجدة محتقرا لها وهي في قمة سعادتها فذهب ليلحق بمليكة ينادي عليها وهي ما زالت تهرول، ودموعها حجبت الرؤية تسير بسرعة كبيرة هو يسير محاولا اللحاق بها يجري عليها مسرعًا بصوتٍ عال:

. ملييييييكة

***

سار كالمجنون بالطرقات.. يبكي تارة ويغضب تارة.. لمَ دائمًا لا تعطيه فرصة للشرح والتبرير.. لمَ تنصب نفسها حكمًا وهي الخصم؟.. وصل إلى سيارته فارتادها ليكمل نوبة غضبه بداخلها، خبط يده بالمقعد وعيناه تمتلئ بشرارة قبل أن يمسك هاتفه ليحادث سارة ويفصلها فورا، ألقى

بهاتفه بضيق.. قبل أن يهتز من جديد ليجد اسم سجدة على الهاتف، ينظر لاسمها بغضب يترك هاتفه، لا يعلم لماذا لا يريد التوجه للعيادة الآن، سجدة ما زالت تهاتفه ولكنه لا يهتم ظل بالسيارة يشعر بغضب وكأنه وحش يريد أن يلتهم المارة، يضع يده خلف رأسه ويحدث عقله بغضب:

. تراني خائنا؟، لقد صنت عهدي معها، وفي النهاية تُدينني بالخيانة، أنا لم أخُنها

ركز قليلا محركًا شفتيه:

. تدينني بالخيانة، وأنا لم أخُنها، وإذا فعلت أي شيء لم تصدق، فماذا لو خنت فأنا في الواقع مُدان فاستمتع الآن، وفي ذات الوقت أحاول فهم حازم وشعوره فمن الممكن أن أساعده!

ما زال الهاتف يرن فيمسك به ليجدها فيفتح دون أن يسمعها قائلا:

. أريدك

ضحكت ساخرة:

. الآن؟

. أجل، أين أنتِ؟

. بالبيت

. متى يأت زوجك؟

. لن يأت اليوم فالعمل كثير

. أنا قادم إليكِ، ما العنوان؟

دقائق قليلة فصلته عن الوصول لمنزلها طرق الباب ثلاث طرقات بقبضة يده كما اتفقت معه تماما، ففتحت له الباب وهي تنظر بأعين

مليئة بالغنج مرتدية قميص نوم وردي اللون يلائم بشرتها الخمرية وتقول بابتسامة بها كثير من المكر:

. جئت بالموعد، تفضل

نظر لها دون اهتمام وبدأ بتمرير عينيه بين جنبات شقتها الفارهة، لاحظت هي ذلك فتحدثت وهي تمسك رباطة عنقه قائلة:

يبدو أن المنزل قد أعجبك كثيراً، ماذا لو رأيت غرفة نومي؟!

ابتسم وشرارة الشهوة تتطاير من عينيه.. قبل أن يقول:

. فلنجرب

ساروا باتجاه غرفة النوم.. ولكنه توقف فجأة فتساءلت:

. ما بك؟

بدأ يخلع دبلته يقول بسخرية:

. سأتركها هنا فلا أريد أن أجعلها تشاهد ما سيحدث

***

. لقد أخبرتك بانتهاء عملك معي وهذا نهاية قولي، . فقدت زوجتي بسببك، وفي النهاية تحدثها حتى تأتي وتعتقد أنني أخونها، بهذه الكلمات صاح "خالد" في وجه مساعدته بعدما وجدها بالعيادة، سادت على وجهها علامات الارتباك قبل أن يخرج صوتها المتهدج وتتحدث قائلة:

. صدقني.. هي فقط هاتفتك بهاتف العيادة فردتت عليها وقلت إنك بالكافتيريا

. كاذبة، هي قالت حديث آخر.. أنتي تعمدتي إفساد علاقتي بها.

امتلأت عيناها بالبكاء وتقول مرتجفة:

. صدقني سيدي لم أفعل شيئا

بدأت تبكي وترتجف تنزل من أعينها قطرات تقتل روحها في نفس اللحظة التي دخلت بها مليكة للمكتب نظرت لها فزفرت بخالد:

. لما تبكي هكذا، ماذا فعلت بها؟؟

نظر لها مندهشا ليقول:

. هي السبب لانفصالنا، لا أريد عملها

. لا وأنا أريدها تعمل

. لماذا جئتِ؟

نظرت لسارة مشيرة لها بالخروج واتجهت لتجلس على المقعد:

. شعرت أنني مذنبة وأنك صادق، عندما تحدثت مع أمي، قالت أن التمس لك العذر وأن حبنا لم نهدمه بتلك الطريقة، أأنت صادق خالد؟

. صادق مليكة صادق

اتجه ناحيتها بنظرات شوق وهو يضمها بين ضلوعه:

. اشتقت إليكِ كثيرًا مليكة، الروح كانت مشتاقة لعيونك.

مرت حوالي نصف ساعة شعر فيها أخيرًا بعودة روحه لجسده، شعر فيها بالألفة بعدما تركته غريبا، تبادلا الضحكات والأحاديث، بل وأمسك يدها لتجذب لحيته وكأنه اشتاق لمشاكستها له، قطع أحاديثهما صوت ضجيج بالخارج ينم عن محاولة سارة منع أحدهم من الدخول، ولكن الباب يُفتح لتدخل تلك الفاتنة مرتدية فستان قصير يبرز مفاتنها تقف أمامهما قائلة:

. نسيت تلك الدبلة بالأمس حبيبي

وضعتها على المكتب ثم تتجه ناحية الباب للخروج فتقف قائلة:

. لو تعلم ليلة أمس كانت ممتعة بالفعل، لم أحظ بتلك السعادة من وقتها

في تلك اللحظة قد جمدت دموع مليكة من صدمتها، تركتهم سجده وهو يقف أمامها لم يستطع أن يبرر، ظلت واقفة تنظر له تعاتبه تحرك رأسها يمينا ويسارا بالرفض لتقول: . أكرهك

ثم تتركه مهرولة ليقع على الأرض حزنًا، يعلو صوته بالأسف، حزنه قد طبع عليه، كلمات الندم الذي يرددها، مر عليه شريط مليكة ومر عليه أيضا خيانته لها بالكافتيريا ليكتمل المشهد الذي قد حطمه بالكامل.. .لاعنًا الخيانة والخائنين.. لاعنًا ذالك المريض الذي فتح أبواب الجحيم على مصراعيها أمام وجهه.. لاعنًا مهنته التي أصابته يومًا بالهوس والآخر بالهلاوس وحولته اليوم إلى خائن.. قاوم دموعه ممسكًا بدفتره المفتوح على ورقة بيضاء تحمل عنوان الخيانة وبدأ بالكتابة:

. الخيانة صدقًا سرقة فجميعنا سارقون، وكلنا شياطين الطيب منّا يتجمل على شكل ملاك ولكن طباعه نابعة من شيطان النفس، الخيانة تقترب منا ومن يتبعها يصل للجحيم، كيف لسرقة مشاعر أن تؤذينا، علمت أن الكلبتومانيا سرطان المشاعر عندما مزقت روحنا وما زالت تمزق هذه الروح الضعيفة.

أغلق دفتره وغادر عيادته والدموع المنهمرة تأبى التوقف، ليترك سارة وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة النصر لتمسك هاتفها وتبدأ بالحديث قائلة:

. أحسنتي صديقتي.. الآن لن يرى غيري أمام ناظريه.. هذا حقي وعليّ امتلاكه بأي طريقة سأسلبه مشاعره كما سلبني إياها.. شكرًا سجدة.. واعتقد أن ليلة الأمس كانت كفيلة برد الجميل إليكِ.

هنا هُدنة لالتقاط الأنفاس، مرحبًا بكم بأرض الفانتازيا والغموض، أربطوا الأحزمة واستعدوا لتلك الرحلة..

ما رأيك أن تحدثني عن عشرين عامًا من الفراغ القابع أنت بداخله؟!، هل من الممكن أن تصف لي تجربتك (حينما فقدت الشعور)؟، هذا هو حال كريم.. فقد رفض الماضي وحاول الهروب من مخالبه، فاصطدم بعالم موازٍ لا يعلم عنه شيئا.. ولا ناقة له ولا جمل به.

أما وائل فكان على النقيض.. لم يهرب من الماضي.. بل لا يعلم شيئا عنه.. ولكنه يحاول الهروب من الغد.. يحاول أن يكتب مصيره بدلًا من ذلك (الحبر الأسود)

الفصل الرابع

الحبر الأسود

1. حينما فقدت الشعور سهيلة عظيمة
2. الحبر الأسود عبد العزيز طارق

1- حينما فقدت الشعور

سهيلة عظيمة

في عام 2047

كان كريم مستلقيا على سريره بسكون بتلك الغرفة الباردة, التي لا يُسمع فيها سوى صوت جهاز النبض الذي يعد العلامة الوحيدة على بقائه حيا, كان شعره ولحيته يكادان يخفيان ملامحه من كثافتهما, ورغم جسده الهزيل ولونه الشاحب إلا أنه كان شابا وسيما.

ظل مدير المشفى يتأمله بصمت, فدلفت الممرضة للغرفة وقامت بفحص مؤشراته الحيوية، وقالت بعملية:

. مؤشراته جيدة كالمعتاد.

أومأ مدير المشفى رأسه وهو لا يزال يتأمله قبل أن يقول:

. أتعلمين؟ في نفس هذا اليوم منذ 17 عاما جاء إلى هنا, لقد أصبح عمره الآن 37

اقترب من الأجهزة المتراصة بجوار فراش المريض.. وكأنه يتأكد بنفسه أن كل شيء على ما يرام قبل أن يتابع حديثه:

. كان لكريم أخت تدعى ريم, والداه متوفيان، فقد كانت هي كل ما يملك.

تساءلت الممرضة بذهول:

. لماذا إذن لم تأت لزيارته طوال هذه المدة؟

أعاد النظر إليها بأعين تشع بالحسرة قبل أن يجيب قائلاً:

. لقد ماتت.

حل الصمت بأنحاء الغرفة حتى ولج ذلك الطبيب الشاب "فتحي" إلى الغرفة بأعين امتلأت بالحماس، نظر له المدير وقال:

يبدو عليك الحماس يا فتحي، لقد أتيت قبل ميعادك!

ابتسم فتحي ليعلن عن صفين من الأسنان البيضاء.. قبل أن يقول:

. في الحقيقة لم أستطع الانتظار أكثر من ذلك.

تنهد مدير المشفى معلنًا عن هجمات القلق التي بدت أكثر على حديثه:

. حسنا, على أي حال ستجهز الغرفة بعد قليل، بالطبع تعرف تفاصيل يوم الحادث أليس كذلك؟

قال فتحي بلهجة صارمة تخلو من القلق وكأنه يجيب على سؤال بامتحان شفوي استعد له طوال حياته:

. بالتأكيد.. بعد الحادث أستيقظ كريم فقط ليوم واحد, كل ما كان يردده حينها هو ريم.. ريم, أخبره طبيبه أنها ماتت، وأنه الوحيد الذي نجا بعد أن اصطدم بشاحنة كبيرة أثناء قيادته وهو مخمور, حطم الغرفة بالكامل وضرب طبيبه والممرضين, ثم فقد الوعي ليستمر في سباته العميق حتى الآن.

اقترب فتحي من ذلك الثلاثيني الراقد في ثبات متأملًا ملامحه المنهكة ثم تابع:

. إنها غيبوبة من نوع خاص.

عقب المدير على كلام الطبيب الشاب قائلا:

. أتعلم؟! لو كنت مكانه لبقيت في سباتي، لماذا برأيك سيستيقظ بعد كل هذا؟ ليتحسر على سنواته الضائعة، أم على عائلته التي لم يبق منها أحد.

ثم صمت قليلا وتابع:

. ولعلمك أنا لا أوافق على تجربتك هذه، رغم صدور الموافقة عليها إلا أنني لا زلت معترضا، وأظن أنه لو استيقظ فأول شيء سيفعله هو التخلص منك.

ابتسم فتحي حتى بدت أسنانه ثم تساءل:

. هل أسيل جاهزة؟!

. نعم, ولكن أسمح لي بأن أسأل لماذا أردت ضمها للتجربة؟

قال فتحي بثقة:

. دعني أُجيب عن سؤالك الأول, لماذا سيستيقظ؟! إن سبب بقائه في هذه الغيبوبة أنه لا يملك سببا للحياة, كريم كان سبب وفاة أخته, عقله الباطن يرفض العيش ولولا الغيبوبة لانتحر في اليوم ذاته, أردت أن يشعر بأن هناك أحدا مثله، أحدًا بجواره يدفعه للبقاء حيا, لقد أطلعت على سجل أسيل, أسيل في غيبوبة منذ عامين أصيبت بنوبة قلبية بعد وفاة والدها, ولم يأت أي أحد لزيارتها أيضا.

قاطع دخول الممرضة حديثهما وهي تخبرهما بأن الغرفة أصبحت جاهزة الآن استعد فتحي للذهاب فأوقفه المدير قائلا:

. تذكر أن أي شيء يحدث له أو لها فأنت وحدك المسئول عنه.

ابتسم فتحي بغرور قائلا:

. لا تقلق أنا واثق أن كريم سيستيقظ من سباته, أما أسيل فلا أعتقد ذلك ولكني متأكد على الأقل أنها لن تصاب بمكروه.

***

نُقل كل من كريم وأسيل لتلك الغرفة, كانت غرفة زجاجية واسعة بها سريران مزودان بالعديد من الأسلاك التي اتصلت بجميع أجزاء

جسديهما, وقد طلب فتحي وضع جهازي إنعاش في أحد أركان الغرفة، دلف كل من فتحي والمدير للغرفة, فقال فتحي باستفزاز:

. هل لي بأن أعرف سببًا لاعتراضك على التجربة؟

رد المدير بسخرية:

. أتطلب رأيي حقا؟!

. في الحقيقة لا أحتاجه ولن يؤثر على أي شيء, ولكنني شخص فضولي أرغب في معرفة سبب رفضك.

. حسناً, أنت تريد خلق واقع افتراضي وتجبره على جعله يتفاعل معه بكل مشاعره أو أنت بالأصح ستكذب على عقله الباطن, ستعطيه أملا وسببا للحياة، ولكن وحينما يصدق هذا العالم ويستيقظ فعلا.. ألم تفكر أنه قد يصاب بصدمة أشد وينهار؟

قال فتحي ببرود:

. قد يصاب، وليس أكيدا.

. أنت تنوي جعله يعيش حياة افتراضية يرى فيها أخته وعائلته وتقنعه أنهم أحياء وحينما يستيقظ ستقول مفاجأة لا شيء من هذا حقيقي كنا نتسلى بمشاعرك قليلا!!

قاطعه فتحي:

ومن قال أن العالم سيحوي أيا من ذكرياته أو عائلته؟ يبدو أنك لم تفهم بعد العالم الذي سأصنعه لن يمت لحياته السابقة سوى بصلة واحدة، أخته.. لن أعود لذكرياته أو أحاول صنع المزيد منها سأضعه في وضع محير وغامض لينتبه له ثم سأصدمه، سأجعل جسده بالكامل يتفاعل مع الأمر.

. أنت مجنون!! أنت تعرض حياة المريض لخطر.

صرخ المدير بهذه الجملة ثم صمت قليلا ليهدأ وتابع:

. ولكن ما باليد حيلة, لا يمكنني منعك أفعل ما شئت ما دمت مسئولا عنه.

قال فتحي بثقة:

. درست الموضوع لمدة طويلة وأنا مستعد لأي شيء قد يحدث، رجاء سأطلب منك التوجه للغرفة المخصصة لك حيث يمكنك مشاهدة كل شيء.

***

لم يكن يشعر بأي شيء منذ مدة، ولكن هناك أمر غريب، وكأن ستار الصمت انزاح أخيرا بعد أعوام ظن فيها أنه أصم, لقد سمع صوتها بينهم وهي تقول: كريم أستيقظ!!

كريم:

فتحت عيني لأجد نفسي بمنتصف طريق عام، تأملت المجتمعين حولي ممن يحاولون إيقاظي لدقائق, لحظة ملابسهم, أليست ملابس الستينيات؟، تحدثت بهدوء بعكس الذعر الذي اعتراني:

. في أي عام نحن؟

أجابني أحد الواقفين بنظرة متعجبة: 1962.

جف حلقي وعجزت الكلمات عن الخروج، بدأوا يرحلون من حولي ولا زلت جالسا أحدق في الفراغ تخليت عن الهدوء وقلت بذعر وكأنني بدأت باستيعاب الأمر: ماذا حدث؟ وأين ريم؟.

وقفت بصعوبة وأنا أتمتم: ماذا عن الحادث وريم؟ أقترب مني أحد الواقفين بخفة, ثم قال بصوت هامس: أتبعني.

التفتُ إليه فوجدته يرتدي معطفا أسود ويسرع في خطواته مبتعدا عني, فجأة وجدته يركض بسرعة, ركضت خلفه دون تردد كنت متأكدا أنه يعلم شيئا عني، دخل الرجل لزقاق ضيق ومظلم رغم أننا في وضح النهار, دخلت بعده ولكنني لم أجده، تابعت الدخول بخطوات حذرة, فوجدت شخصا ذا معطف بني راكعا على ركبتيه ومنهمكا في عمل ما, اقتربت منه أكثر بدافع الفضول لأجد سيلا من الدماء يجري من أسفله, لقد كانت امرأة مذبوحة بوحشية وقد أخذ بأصبعه بعضا من الدم وهمّ يكتب به على جبهتها وهو يغني, لم أستطع كبح ذعري أكثر, فشهقت بصوت عال ألتفت إلى الرجل بسرعة, ظللت أنظر لعينيه المظلمتين التي أعتقد أنهما على الأرجح سبب الظلام المحيط بي, هبّ الرجل سريعا ودفعني بيده الملوثة بالدماء فسقطت أرضا, كنت مصدوما وعاجزا عن الحركة لبعض الوقت.. التفت بحذر لأنظر إليه ولكنه كان قد اختفى, وفي تلك الأثناء تسللت امرأة من خلفي وقالت:

. هل أنت بخير يا بني؟

أحسب أنها قالت هذا قبل أن ترى الجثة, ما أن نظرت لها حتى رأت ملابسي الغارقة بالدماء ورأت الجثة بوضوح, صرخت بفزع تطلب النجدة.. أدركت أن علي الهرب الآن فوقفت مسرعًا ودفعتها من ذعري وركضت بسرعة دون أن أنظر خلفي، كنت أعتقد أنه كلما أسرعت خطواتي كلما أسرع الزمان بي وعدت بذاكرتي لزمني, لذلك اليوم المشؤوم، يوم خسرت كل شيء.

كنت أسمع الشهقات من حولي وأنا أركض، توقفت لألتقط أنفاسي قليلا فأوقفني رجل عجوز وقال لي:

. هل أنت بخير؟ ملابسك!!

نظرت لملابسي, إنها حرفيا غارقة بالدماء, هربت بسرعة وأنا أتلفت وأرى نظرات الفزع على وجوه من حولي، توقفت قدمي عند أحد المتاجر

دخلت سريعا وسرقت أحد المعاطف دون تفكير, ثم خرجت مسرعا, ارتديت المعطف وأغلقته بأحكام ثم سرت في الطرقات بلا هدى حتى حل المساء.

سمعت عن تلك الجريمة التي رأيتها بالصباح أثناء سيري, وقالوا إن الشاهدة قد استطاعت وصف القاتل بدقة وهو القاتل الذي كان مسئولًا عن سلسلة الجرائم السابقة وغدا ستكون صورته في الصفحات الأولى من الجرائد، كنت ميتا رغم أني أتنفس، لا أفهم ماذا يحدث أو لماذا؟ كنت أسير بهمجية، حتى اصطدمت بفتاة تبدو كالملاك، فسقطتْ أرضا وتناثر شعرها الحريري، كانت تبكي بطريقة مزقت روحي, أيقظني بكاؤها من نوبة الأسئلة التي تكاد تقتلني, انحنيت نحوها وتساءلت: هل أنتِ بخير؟

***

كانت قد يئست بالفعل من العودة، لقد بحثت عنه لسنوات ولكنه كان سرابا، أنه وحده من يستطيع إنقاذها من كل هذا. ظلت تتذكر تلك اللحظة, حينما سمعت صوته الذي تفتقده بشدة: أسيل استيقظي!!

أسيل:

كنت أبكي بلا توقف, قضيت أسبوعًا عصيبًا وأنا أبحث عن ذلك الشاب, في البداية استيقظت في منزلٍ خال, قمت بسرعة وأنا أنظر للمكان بفزع, خرجت من غرفة النوم لأجد شخصا يجلس على الأريكة, لقد أخفت وجهها بمهارة ولكني أعلم أنها امرأة، قالت لي بجفاء:

. إن أردتي رؤية والدك مجددا، أبحثي عن هذا.

ثم ألقت بصورة لشاب يافع على المنضدة, ثم توجهت نحو الباب وكادت أن تغادر فقلت لها:

. وإذا وجدته كيف سأخبرك؟

فقالت لي بسخرية: حينما تجدينه سآتي إليك وأخبرك بما أريد.

ثم أطلقت ضحكة رنانة وغادرت, حاولت اللحاق بها ولكنها قد اختفت، مر أسبوع كامل وأنا أنهار, لقد تعبت من البحث عن شخص لا أعرفه، تعبت من الوحشة التي تلتهم جسدي وروحي دون رحمة, فجأة سقطت أرضا كان عقلي متوقفا, حتى أني لا أعلم ما سبب سقوطي سمعت أحدا يسألني:

. هل أنتي بخير؟

أجبته: نعم بخير.

مسحت دموعي ونظرت إليه, غير معقول.. هو ذلك الشاب الذي كنت أبحث عنه!

قطع سروري وتفكيري بصوته العذب قائلاً:

. كيف أساعدك؟

كنت أحدق به فلمحت بعضا من الدماء على مقدمة عنقه قلت له وأنا أشير لعنقه:

. يبدو لي أنك من تحتاج للمساعدة, سارع بمسح الدم بسرعة وساعدني على الوقوف قائلاً:

. في الحقيقة نعم احتاج للمساعدة وفي المقابل سأساعدك, أنا كريم وأنتِ؟

قلت: أسيل ثم تابعت:

. كيف يمكنني مساعدتك؟

. أحتاج مكانا للمبيت وأنتِ؟

قلت له بدون تفكير:

. أحتاجك فحسب.

أدركت ما قلته متأخرا فتداركت الأمر وتابعت:

. أحتاج رجلا, فالسفاح لا يقتل سوى العازبات.

نظر إلي بتعجب وكاد أن يتحدث ولكني قاطعته وقلت:

. منزلي قريب من هنا يمكننا الذهاب الآن أن أردت.

هز رأسه بالموافقة فذهبنا باتجاه المنزل.. ظللت أتلفت يمينًا ويسارًا طوال الطريق بحثًا عن تلك المرأة التي طلبت مني إيجاده ولكن دون جدوى.. وما أن دخلنا إلى المنزل حتى تساءل قائلا:

. ماذا كنتِ تقصدين مسبقا؟

تجاهلت سؤاله وعمدت إلى تغيير مجرى الحوار بقولي:

. أخلع معطفك أولا يبدو أن لديك جرحا يحتاج لعناية.

. أنا بخير

في الحقيقة لا أظن أنه شخص عادي, هناك أمر مريب به بدأت أشك أنه ذلك السفاح الذي قتل الست نساء, ركضت نحو مطبخي وأحضرت سكينا ووجهتها نحوه قلت بصرامة:

. أخلع معطفك

كان يبدو عليه الخوف أطاع أمري وبدأ بخلع معطفه ببطء وهو يقول:

. أرجوك أستمعي لي أولا .. ..

***

كريم:

فكرت بسرد حكايتي كاملة منذ البداية وحتى استيقاظي بذلك العالم الغريب، ولكنها بالطبع لن تصدقني بل ستجزم بأنني سفاح مختل.. لذا فقد قررت سرد حكايتي مع جريمة القتل التي لم يكن لي ناقة بها أو جمل، ولكن يبدو أنها لم تصدقني.. قالت لي بحزم:

. أنت السفاح إذا؟

نظرت لها بخوف يبدو أنها لم تصدقني اقتربت مني همت بضربي, أغمضت عيني ورفعت يدي أمام وجهي لأحتمي بها, فجأة سمعت صوت ضحكاتها، قالت بسخرية:

. يبدو أنك لست هو.

ثم دخلت لإحدى الغرف وهي تقول:

. تستطيع المبيت بأي غرفة جميعها فارغة.

كان هنالك ثلاثة غرف اخترت أبعد واحدة عن غرفتها أكاد أجزم أنها هي السفاح لولا اختلاف نظراتهما ولكني في الحقيقة كنت معجبا بقوتها نمت بصعوبة لبعض من الوقت، أيقظني رائحة عبيرها في الغرفة, فتحت عيني بصعوبة لأجدها تجلس وتحدق بي بصمت, ارتعدت أوصالي من فعلتها فقلت لها بفزع:

. ماذا هناك؟

. أصبحت متهما في 7 جرائم الآن.. لقد قتلت صحفية بالأمس ليلا بنفس الأسلوب، أين ذهبت بعد أن خلدت أنا للنوم؟

. أقسم أنني لم أخرج من الغرفة

. أتمزح معي؟ لم يكن هناك أحد هنا ليلا، لقد استيقظت وبحثت عنك ولكنك اختفيت.

أسيل:

كنت أكذب عليه أعلم أنه لم يخرج من الغرفة قط ولكني أردت أن أعرف ما الذي سيقوله أو كيف سيتصرف استمتعت بملامح الفزع تملأ عينيه قبل أن يقول لي بيأس:

. إنها إعدام بالنهاية.. قتلت أنثى أو اثنتين أو سبع, لم يعد يشكل الأمر فارقا بالنسبة لي حياتي انتهت منذ لحظة قدومي هنا.

نظرت له بتعجب ماذا يقصد بقدومه هنا.. تُرى أهو مثلي؟ قلت له:

. سأعود متأخرة.

خرجت من المنزل تاركة إياه بدائرة من الأسئلة تشبه تلك التي تحيط عقلي.

كريم:

ذهبت لأتجول قليلًا بالمدينة فالمكوث بمنزلها لا يريحني البتة ولكن لا خيار أمامي, وفي أثناء سيري وجدت ذلك الشخص ذي المعطف الأسود يشير إلي بأن أتبعه, ثم هم بالركض مبتعدا عني, كنت يائسا للغاية وفكرت في تجاهله ولكن قدمي تحركت من تلقائهما نحوه ترى ماذا سأجد هذه المرة؟

رأيته يشير إلى شخص يرتدي معطفا يبدو مألوفا لي.. تبعت ذلك الشخص حتى دخل لأحد المباني وصعد السلم ثم توجه نحو إحدى الشقق فتحها بالمفتاح ودخل, لم أستطع اللحاق به فانتظرته أسفل المبنى خرج بعد مرور نصف ساعة تقريبا أمسكت بكتفه فالتفت إلي نصف التفاتة.. لقد كانت امرأة!.. دفعتني بيدها الملطخة بالدماء وسقط منها مفتاح الشقة وركضت, لم ألحق بها بل صعدت لتلك الشقة فتحت الباب ببطء.. ويا ليتني ما فتحته.. فقد وجدت زوجين مذبوحين بالداخل, سقطت أرضًا من هول الصدمة, ثم تنبهت لصوت يأتي من الداخل, بحثت عن مصدر الصوت فوجدت معطفا ما ملقى على سرير للأطفال,

أزلت المعطف لأجد طفلا رضيعا يبكي ويصرخ لم أستطع فعل أي شيء سوى أن أبكي أنا أيضا، تمالكت نفسي وفكرت.. السفاح من البداية كان امرأة وليس رجلا، نظرت إلى المعطف متذكرًا إياه، إنه يبدو كمعطف أسيل تماما حتى أنه يحمل رائحتها.. .عدت للمنزل مسرعا، ولكنني لم أجدها، انتظرتها لعدة ساعات مرت على كدهر كامل، حتى فتحت الباب ويبدو عليها الإرهاق.. سألتها بحزم:

. أين كنتِ حتى الآن؟

نظرت إلى بتحدي وقالت:

. ما شأنك أنت؟ هل أنت واص علي؟

أمسكت كتفها بعنف وقلت لها:

. أين كنتِ أجيبيني؟

. أنت مجنون!

هكذا جاءت إجابتها ثم نظرت لي بتفحص وقالت:

. وما هذه الدماء على ملابسك.. أأصبحت عادة لديك؟

نظرتُ لها بأعين ترميها بسهام الشك قبل أن أجيب سؤالها بسؤال:

. بالطبع سمعتِ عن العائلة التي قتلت اليوم المتهمة امرأة.. معطفك كان هناك أنسة أسيل حتى أنه يحمل رائحتك.

تطاير الشرر من عينيها قبل أن تتحدث بعصبية:

مِعطفي سُرق منذ قدومك ثم لماذا لا تكون أنت القاتل؟، ملابسك غارقة بدمائهم جميعا.

لم أشعر بنفسي سوى وأنا أصرخ بها:

. كفي عن التمثيل، لقد جعلتيني أنا المتورط في كل هذا لا أعلم لماذا؟، لا أعرف شيئا عنك أو حتى سبب عيشك وحدك في هذه الشقة, إلا تخشين وجود شخص غريب معكِ هنا رغم وجود سفاح يحوم في المدينة!، أتعتقدين أني سأصدق أنك طبيعية !! بالطبع لا.

أسيل:

كل ما قاله لي كان صحيحا له الحق بأن يظن أنني القاتلة, دوما ما كان الخير ينتصر على الشر في النهاية, ولكن كل شيء يُحتم على أن أكون أنا الشر نفسه, لماذا يحتم على أن أقتله حتى أعيش؟ كنت أفكر كيف أجيب على اتهاماته, فتمالكت أعصابي وتحدثت بهدوء:

أنت لست قاتلا, وأنا أيضا لست كذلك صدق الأمر أو لا تصدقه.. كل ما في الأمر أن حياتي أنا وأنت متوقفة ولا أعلم متى سيؤذن لها أن تعود للسير مرة أخرى.

هدأت نوبة غضبه فتركته ودلفت إلى غرفتي.

***

(كريم)

رأيت الصدق بعينيها, يبدو أنها مثلي تماما, نظراتها كانت مشرقة, ليست كتلك التي من ظلمتها تكاد تظلم العالم أجمع, شعرت بالندم قليلاً, لم تكن تستحق ما قلته حقاً.. ولكني لم أزد حرفًا على كلامي بل تركتها وذهبت للنوم, وفي الصباح قررت أن أراقبها لأعلم إلى أين تذهب وليطمئن قلبي, خرجت هي دون أن تتفوه بكلمة, تبعتها حتى وصلت لمبنى محترق دخلت إليه وحدها, ثم دخلت بعدها, كانت تنادي: ريم، ريم.

شعرت بأنفاسي تزداد وأنا أنظر لها, جاءت ريم ووقفت أمام أسيل وقالت لها:

. ماذا تريدين؟ ألم أقل لكِ أن تقتليه ماذا تنتظرين؟

بدأت دموع أسيل بالفرار من حواجز عينيها وبدأت الحديث بصوت واهن أشبه بالتوسل:

. لا أستطيع, لا أستطيع أن أؤذيه.. أن كان قتله سيجعلني أعود لزماني وأرى أبي، فلا أريد العودة ولا رؤية أبي مجددا أنا لن أفعل هذا.

اقتربت ريم من أسيل وفجأة جذبتها من شعرها بقسوة وقالت:

لا تستطيعي البقاء هنا، أنتي متهمة في جريمة عزيزتي أن بقيتي هنا ستقضين الباقي من حياتك تتعفنين في السجن, أو تظلين هاربة طوال حياتك.. لماذا تدافعين عنه قتله ليس صعبا، لقد قتلت عائلة من قبل، أليس كذلك أسيل؟

صرخت أسيل قائلة:

. أنتِ كاذبة، أنتِ من قتلتهم وقتلتي السبع نساء الأخريات.

قالت ريم لها بسخرية:

. لا عزيزتي، السبع نساء لقد قتلهم والدك الذي لا تريدين رؤيته، سيحزن كثيرا عندما يعلم أن ابنته الوحيدة لا ترغب برؤيته أبدا.

قالت أسيل بتألم:

. لن أستطيع قتله صدقيني.

هنا لم استطع التزام الصمت أكثر من ذلك فصحت قائلاً:

. ماذا يحدث هنا؟

نظرت لي ريم أنها حقا ريم أختي ولكنها لم تكن هي، نظراتها مظلمة تماما، قالت ريم:

. أحسنتي يا أسيل حقا, أحضرتيه هنا بطريقة ذكية!

هكذا صاحت ريم بسخرية تمتزج بالغضب أما أسيل، فقد ظلت تبكي وتتأوه، كنت عاجزا عن الحراك, وفجأة أتى رجل من خلفي, أدخل سكينا بظهري وتابع طعني دون توقف، لقد كان هو السفاح، كانت أسيل تبكي بحرقة وتقول: أبي, أبي لا تفعل هذا أرجوك.. آخر ما سمعته كان صوتها وهي تقول: كريم أستيقظ..

***

في عام 2047

كان الطبيب فتحي يحاول التحكم بدماغ كريم بعد أن يأس من استيقاظ أسيل, ولكن كان جسد كريم خارجًا عن السيطرة، كان ينتفض بشدة مع كل طعنة, أما أسيل فلا زالت في سباتها العميق, أخذ فتحي يتصبب عرقا رغم برودة الغرفة، فجأة توقف نبض كريم، فسارع بأخذ جهاز الإنعاش وأخذ يحاول إعادة النبض له وهو يصرخ:

. إنها الخطوة الأخيرة عليه حتما أن يستيقظ الآن, عليه أن يستيقظ.

دخل مدير المشفى بسرعة وساعد فتحي على الإنعاش فعاد نبض كريم بعد محاولات عديدة.

صرخ المدير بفتحي قائلاً:

. لقد كاد أن يموت بسببك, لقد دمرته حرفيا, ولم يستيقظ بعد كل هذا! الآن أتمنى أن تدرك أن تجربتك كانت فاشلة من البداية.

ورغم فشل التجربة الوشيك إلا أن فتحي لم يتنازل عن تلك الثقة فتحدث قائلاً:

. علينا أن ننتظر ليومين على الأقل، من المفترض أن يكره أخته ويكره الواقع الافتراضي ويُصدم منه فبساطة يستيقظ من غيبوبته.

استمر المدير بصراخه قائلاً:

. أن أفاق من غيبوبته فأنا متأكد أنه سيكون مريضا نفسيا, أنت أردت تعذيبه حتى يستيقظ أردت إجباره على نجاح تجربتك اللعينة.

ثم نظر له باشمئزاز وخرج من الغرفة، نادى على الممرضات وأمرهم بإخراج كل من كريم وأسيل وإعادتهما إلى غرفتيهما.

***

مر أسبوعان ولم يستيقظ كريم أو أسيل, أصيب فتحي بالاكتئاب الحاد ولم يعد يأت للمشفى ذهب مدير المشفى لزيارة فتحي في منزله وقال له: قل الحمد لله أن كريم لم يمت بعد ما حدث.

ولكن فتحي ظل يتابع المدير بصمت، فاستكمل الأخير حديثه قائلا:

. فكر في أمر آخر سوى استيقاظ كريم, صدقني التجربة كانت فاشلة من البداية .

قاطعه فتحي بعصبية قائلا:

. إياك والقول إنها فاشلة, الأمر لم ينجح على كريم فحسب، سأجرب على شخص آخر، فصرخ المدير به قائلا: مستحيل لن أسمح لك بهذا.

هم فتحي بالحديث ولكن المدير قاطعه قائلا:

تشرفت بمقابلتك يا فتحي أتمنى أن تنجح مستقبلا في أي شيء سوى الطب، غادر المدير وعاد للمشفى، كان ينظر لكريم الذي يبدو وكأنه لا زال يتألم، قالت الممرضة للمدير: لقد كان الأمر فاشلا منذ البداية، قال المدير: لم استطع النوم منذ أسبوعين. كل ما أحلم به هو يوم التجربة..

وبعد مرور 10 أيام وصل للمدير نبأ انتحار فتحي قبل يومين بسبب اكتئابه الحاد، حيث قال شهود إنه دخل لمختبره وأحرقه وهو في الداخل، وبسبب انهيار المختبر وتفحمه لم يتم العثور على جثته, وقد ترك رسالة في منزله قال فيها: التجربة لم ولن تكون فاشلة أبدا.

ذهب المدير للعزاء وهو يقول في نفسه:

.يبدو أنه لم يتحمل فكرة فشل تجربته.

عاد لمنزله وبعد عدة ساعات, تفاجأ المدير باتصال الممرضة به في الساعة الثالثة فجرا وحينما أجاب ردت بصوت لاهث: دكتور لقد شب حريق هائل في المصحة, قال بصدمة: ماذا؟؟ ماذا عن المرضى؟ قالت له: لا تقلق رجال الإطفاء ساعدونا واستطعنا إخراج المرضى وإصاباتهم طفيفة ولكن صمتت قليلا فقال المدير: ولكن ماذا؟ قالت: كريم وأسيل مفقودان، قال: ماذا؟؟ قالت: يبدو على الأرجح أنهما استيقظا، الحريق كان مفتعلا، قال المدير: معقول إنهما قد استيقظا؟؟

2- الحبر الأسود

عبدالعزيز طارق

استيقظ من غفوته طويلة الأمد.. لترتجف أجفان عينيه منزعجة من ذلك الضوء الساطع، أضاق حدقتيه محاولا التأقلم مع الضوء.. شعر بالألم ينهش مؤخرة رأسه وكأنه قد ضُرب عليها توا.. تجول بناظريه ليجد نفسه بتلك الغرفة البيضاء، بل ناصعة البياض لا يوجد بها أي شيء سواه.. تبدو نهايتها كمثل بدايتها وكأن اللاشيء الموجود بعقله قد ترعرع ليستحوذ على تلك الغرفة..

وفجأة ظهر باب حديدي عتيق من العدم بأحد جوانب الغرفة.. اعتراه الذهول وهو يتابع رسم ذلك الباب لنفسه بين ثنايا الحائط.. وكأنه يقول:

"حان الآن موعد أن تنظر ما ورائي"

هب من على فراشة الأبيض وكأنه مُسير، ليتقدم بخطوات متوترة وينخفض صدره ويرتفع بسرعة كبيرة حتى وصلت أنفاسه حد اللهث، أمسك بمقبض الباب والقلق يكسو عقله ليحركه إلى الأسفل ببطء شديد فينفتح الباب..

وجد نفسه بفراغ شفاف كالهواء قبل أن يبدأ ذلك الفراغ بالتشكل.. لترتسم ملامح غرفة شعر بالألفة تجاهها.. رفع حاجبيه ذهولا وبدأ لسانه بالتحرك قائلا:

" دي أوضتي"..

خطفت عيناه جولة سريعة بتلك الغرفة ذات الجدران الوردية لتشعر بالألفة هي الأخرى بداخل أركانها تقدم بين خزانة الملابس الخشبية

وفراشه حتى وصل إلى المرآة، نظر بها لتجحظ عيناه بعد أن وجد نفسه خفيا.. وكأنه السراب.. وفجأة بدأ جسده بالتشكل أمامه بالمرآة تدريجيا من الأسفل إلى أعلى.. تابع ملامحه وهي تُخلق أمامه من العدم حتى بدا جسده مكتملا.. أطال النظر بملامح وجه ذو البشرة الخمرية وعيناه التي اعتلت جبلين من السواد الداكن.. حرك يديه ليداعب خصلات لحيته الكثيفة كريستالية اللون، تحركت قدماه وكأنه إنسان آلي لا فكر له ولا قدرة حتى وصل إلى أحد أركان الغرفة ليجد مجموعة من الأوراق المنثورة على الأرض وقد حولها الإهمال إلى اصفرار من بعد بياض، مد يده ممسكا بإحدى الأوراق التي امتلأت بالتجاعيد وكأن أحدهم قد اعتصرها بقبضته.. بدأ بفتح الورقة ليقرأ محتواها:

. وائل أنا عايزة أفهم ليه عملت فيا كده؟! وعشان مين.. عشان دي؟، دي واحده ماشية مع نص صحابك تسيبني أنا حب حياتك علشانها.. أنا بجد مش مصدقة.

. بقولك أيه يا مريم ريحي نفسك مني عشان أنتي مهما عملتي أنا واخد قرار أني أبعد عنك خلاص يا ستي واديني بقولها في وشك لتاني مرة.. أنا مش عايزك..

عقد حاجبيه مشمئزا مما قرأ.. قبل أن تبدأ أحباله الصوتية بالتحرك لتعلن عن صوتٍ أجش قائلا:

. أيه القرف إلى أنا قريته ده

لفت انتباهه ظهور باب خشبي بأحد جدران غرفته.. فامتدت يده فاتحًا إياه.. ليهاجم الظلام عينيه ويسقط فاقدا الوعي.

***

استيقظ مجددًا بذات الغرفة البيضاء، نهض من سباته مذهولا.. متذكرا ما حدث معه، نظر حوله متعجبًا ليجد نفس الباب الحديدي

العتيق يرتسم من جديد سار مسرعًا متجها إليه ممسكا بمقبضه دون تردد.. دخل إلى نفس الغرفة وردية الجدران مجددا ولكن هذه المرة ظلت أنظاره معلقة على الباب الذي دخل منه ليراه وهو يختفي تدريجيا من أمامه وكأنه لا سبيل للعودة، عاود النظر بأنحاء الغرفة مجددا باحثا بعينيه عن الباب الخشبي الذي أعاده إلى الغرفة البيضاء ولكن دون جدوى فقد اختفى ذلك الباب، اتجه إلى ذلك الركن حيث وجد تلك الأوراق المتسخة ولكنها اختفت أيضا..

. وائل أنت فين يا بني هنتأخر

قطع شروده صوت أنثوي ينادي بتلك الجملة ليتذكر تلك المحادثة التي قرأها من قبل والتي ذُكر فيها اسم وائل، وقبل وصوله لأي تفسير بدأ ذلك الباب الخشبي بالارتسام سريعًا وقبل أن يتخطى ذهوله.. فُتح ذلك الباب لتلج أجمل ما رأت عيناه، فتاة شقراء ذات خصلات منسدلة على كتفيها وعينتين زرقاوتين، انفتح فمه ذهولا من الجمال الذي رآه.. نظرت إليه عاقدة حاجبيها من نظراته المثبتة عليها قبل أن تتحدث معلنة عن صوتٍ عذب قائلة:

. يلا يا وائل بقى وعمال تقولي أنا اللي هأخرك، وبعدين في أيه مالك أول مرة تشوفني؟

عقد حاجبيه بعد ذكرها لاسم وائل وهي تخاطبه، إذن هل هو وائل؟!

. لا لا يا بنتي مفيش حاجه مانا جاهز أهو يا مريم..

تحرك لسانه رغمًا عنه واهتزت أحباله الصوتية دون إرادته بهذه الجملة حتى هو لا يعلم أن تلك الفتاة تُدعى مريم.. إذن هي شريكته في ذلك الحوار المكتوب الذي قرأه؟!، نظر حوله بذهول وكأنه يبحث عمن تحكم بعقله، وأثناء نظراته الزائغة سقطت عيناه على المرآة ليرى نفسه هي نفس تلك الملامح التي رآها مسبقًا ولكنه مُهندم الهيئة وقد صُففت

خصلات شعره وهُذبت لحيته، استدار ليقف أمام المرآة متجاهلًا نداءات تلك الفتاة.. شعر وكأن يد فنان قد امتدت لهيئته فأضفت عليها أناقة، شعر بيد الفتاة تمتد لتجذبه من يده ليسير معها كسجين بخطة القدر.

اخترقا الباب الخشبي ليقعا بدوامة من الظلام أفاق منها ليجد نفسه بحافلة، وكالعادة لا يعرف أي شيء وكأنه بعث للدنيا منذ دقائق، نظر من نافذة الحافلة التي يجلس بها ليرى شوارع يحدها الشاطئ والأمواج التي تضرب الصخور بكل قوة لتتناثر قطراتها مثل الألماس في الهواء، يعاود النظر بجانبه ليرى الفتاة الذي كانت معه في الغرفة "مريم"..

. مالك يا وائل بتبصلي كدا ليه؟

قاطعت نظراته إليها بهذا السؤال، استمر بالنظر إلى عينيها الزرقاوتين متسائلًا بعقله هل هي مثله؟!، هل استيقظت لتجد نفسها بتلك المزحة السخيفة؟.. وأخيرًا تحدث ولأول مرة بملء إرادته قائلاً:

. عارفة شعور أنك ضايعة ومش فاهمة حاجة أو بتعملي حاجات مش فاهمة حتى بتعمليها ليه مش عارفة حتى هل أنتي إللى بتقولي الكلام ده ولا حد بيحركك

ابتسمت وهي تداعب خصلات شعرها الذهبي قبل أن تجيب:

. اه فعلًا البحر حلو أوي..

عقد حاجبيه مذهولًا من ردها الذي لا يناسب كلامه، فكرر جملته مرة أخرى، لتبتسم نفس الابتسامة وتداعب خصلات شعرها بنفس الطريقة وتجيب:

. اه فعلًا البحر حلو أوي..

فجأة بدأ كل شيء بالتحول إلى البياض.. البحر وصخوره، الشوارع، ركاب الحافلة.. ثم مريم.. قبل أن ينظر إلى يديه بفزع ليجدها تتحول هي

الأخرى إلى البياض الناصع.. قبل أن يُسدل ستار الظلام على مسرح رؤيته..

***

سقط مفزوعًا من على وسادته ليلهث وكأنه قد خرج لتوه من ماراثون للركض، نظر حوله ليجد نفسه بغرفة أحد الفنادق ومريم مستلقية بجواره بسبات عميق، مد يده مجبرًا ليزيح بعضًا من خصلات شعرها المُسدل على وجهها، أبعد يده عن خصلاتها منتفضًا كمن مسته الكهرباء وعقد حاجبيه مذهولًا مما فعل، نهض من على سريره ليبدأ بالبحث بأرجاء الغرفة بدون سبب وكأنه يبحث عن شيءٍ هام قد فقده، اتجه مُسيراً إلى أحد المقاعد.. ليجثو على ركبتيه محضرًا ورقة مطوية قارئًا فيها ما يلي:

" . أنا بعترف أني بحبك يا وائل وصدقني هيا مش هتحبك قدي..

قالت تلك الكلمة وكأنها قد أطلقت سهما من قوسها لتصيد الفريسة بسهولة

. أنا كمان مشدود ليكي أوي يا بتول.."

نظر إلى الورقة ومن ثم نظر المرآة التي بجانبه متسائلًا من هي بتول؟..

. وائل أنت صحيت؟.. . صاحي بدري يعني وعامل كركبة ودوشة؟!

قالتها مريم وهي تنظر إليه بعين مستيقظة والأخرى لا زالت تحاول قبل أن تستكمل حديثها:

. أعمل حسابك عشرة دقائق وهننزل عشان نعمل برنامج الرحلة يعني نقوم نجهز دلوقتي، نسيت أقولك صحبتي بتول هتيجي معانا..

انتفض فزعًا وهو يقول:

. نعم !!!

. مالك صاحبتي بتول عادي يعني في أيه..

هبت من على فراشها واتجهت إلى دورة المياه لتترك له الأسئلة، هل سيخون مريم من أجل بتول؟؟، وهل أحب مريم من الأساس؟؟، من أتى به إلى هنا وأين كان من قبل الاستيقاظ بتلك الغرفة البيضاء!!، لمَ يُجبر على الحديث بل وعلى كل خطوة يخطوها؟!

تجول في خاطره أسئلة كثيرة ولكن كان أعظمها هو ذلك السؤال.. هل أنا الذي اختار مصيري أم مصيري هو الذي يختارني؟!.. يشعر بأنه يطير، يطير في اللاشيء، يشعر وكأنه في الفضاء كل شيء من حوله يلمع ولكن لم يصل إلى أي ضوء يساعده.. لكن أنا لن يظل هنا، تنهد وهو يرى انعكاس صورته في المرآة ليجد نفسه قد بدل ملابسه.. أومأ رأسه في تحد قبل أن يتحدث.. يجب علي أن أتحرك يجب علي أن أعرف من أنا ومن يحرك مصيري.. خرجت مريم لتقطع شروده وحديثه الذاتي قبل أن ترتدي ثيابها ويخرجا معًا من باب الغرفة لتلتهمهما دوامة الظلام..

. وائل يا وائل..

أفاق من غفوته على صوت مريم تناديه ليجد نفسه جالسًا بأحد الكافتيريات بجوارها ليجيبها رغمًا عنه:

. هاا.. في حاجة يا مريم؟

. خليك مع بتول هروح أعمل حاجة وآجي..

أومأ رأسه غير مبال بحديثها، قبل أن يلتفت ناظرًا لتلك التي تُدعى بتول ليجدها مبتسمة له، ليسألها في هدوء:

. أومال مريم راحت فين؟!

. هي قالتلي رايحة تقابل حد..

. حد مين؟!

. واحد صاحبها؟ هي مقلتلكش؟

. لا محدش قالي ومين صاحبها ده معانا في الرحلة ولا أيه مش فاهم؟

. اه معانا في الرحلة

. وهما فين دلوقتي؟

. قالتلي هتعد في الكافية إلى ورا..

دفع وائل الكرسي للخلف ليهب غاضبًا ويهرول تجاه ذلك المكان حيثما أشارت بتول ليجد مريم بأحضان شاب آخر واقفين، بدأت الدموع بالانهمار بعينيه دون أن يشعر بأي ألم بنفسه حتى أنه مد يده متحسسًا دموعه التي فاضت على وجنتيه، سار غاضبًا تجاه ذلك الشاب ليوجه لكمة قوية إلى أنفه فيسقط أرضاً، قبل أن يجذب مريم من شعرها أمام الجميع ويذهب إلى شاطئ البحر وبتول تركض خلفهم، أفلتها ووقف أمامها متسائلاً، بينما تنظر له مريم نظرة غضب ممزوجة بالاستحقار..

. أنتي بتخونيني ليه عملت أيه عشان تخونيني عايز أفهم؟

نظرت له مشمئزة قبل أن تُجيب:

. أنت مش واعي لأي حاجة يا وائل.. وأنا زهقت وآه مش عايزاك، واديك شوفت بعينك كفاية كمان أني سبتك تعمل كل اللي أنت عايزه أدام الناس..

صرخ غاضباً:

. مريم أنا عايز أفهم ليه عملتِ فيا كده؟! وعشان مين.. عشان ده؟، ده واحد ماشي مع نص صحابك تسيبيني أنا حب حياتك علشانه.. أنا بجد مش مصدق..

. بقولك أيه يا وائل ريح نفسك مني عشان أنت مهما عملت أنا واخدة قرار أني أبعد عنك، وأديني بقولها في وشك لتاني مرة.. أنا مش عايزاك..

ارتسمت وجه وائل ملامح التعجب مذهولاً، لم يكن ذهوله بسبب خيانة مريم له فهو بالأساس لم تهتز شعرة برأسه من ذلك ولكنه تذكر تلك المحادثة التي قرأها بغرفته وردية الجدران، هي ذاتها نفس الجمل التي أثارت اشمئزازه أليس من المفترض أن تتبدل الأدوار.. ألم يقرأ تلك الجمل في أوراق حملت صك خيانته لمريم وعتابه لها، إذا لمَ اختلفت المصائر؟.. شعر بتلك القوة تتحكم بلسانه وأوشك على الحديث ولكنه قرر التمرد، أغلق فمه بقوة مصارعًا ذلك الراغب بحديثه.. حتى شعر بتمكنه وسيطرته على ذاته، فقرر الخروج عن النص المكتوب.. قرر التمرد والكتابة بقلمه هو، ابتسم بهدوء ناظرًا إلى مريم متحدثًا بملء إرادته قائلاً:

. كويس أن جت منك.. أنا أصلًا كنت عايز أنهي العلاقة دي..

لم ينتظر ردها بل أنصرف بخطوات واثقة، ليجد "بتول" تركض خلفه وهي تنادي قائلة:

. يا وائل أقف هتقطع نفسي

توقف عن السير سامحًا لبتول باللحاق به، وهو ينظر إليها متذكرًا تلك المحادثة التي قرأها صباحًا تدور بينهما، إذن فمن المفترض أن تنشئ بينهما علاقة حب يكون مخاضها الآن؟!

. أيوه يا بتول في أيه؟

مدت أناملها الرقيقة تداعب خصلات شعره وهي تنظر له والحزن يطغى على عينيها قبل أن تقول:

. متزعلش نفسك عشان خاطري..

أبعد يدها عن خصلاته وبدأ بالحديث الجاف قائلاً:

. لا مش زعلان بالعكس عارف أن ده هيحصل، وعارف كمان عايزة تقولي أيه..

. عارف ايه..

هاجمه ذلك البياض اللعين ليقضي على كل ملامح الحياة بما فيها تلك الخمرية "بتول" التي تلاشت من أمامه وبدأ الظلام في الصعود التدريجي أمام ناظريه..

***

استيقظ لينظر حوله، فوجد نفسه بالغرفة البيضاء وكأنه كان في حلم ليقف على قدميه ناظرًا بأرجاء الغرفة الخالية من كل شيء، شبك ذراعيه خلف ظهره وبدأ بالتجول بأنحاء الغرفة.. قبل أن يظهر نفس الباب الحديدي الذي عادة ما يقوده إلى غرفته وردية الجدران، نظر إلى الباب بتحد وقرر ألا يطاوع خطوات قدميه.. لن يفتح ذلك الباب ولن يلج تلك الحياة التي لم يختارها.. ظل الباب يختفي ويظهر مرارا بأنحاء مختلفة من الغرفة وكأنه يناديه.. وبكل مرة يرفض تلبية ذلك النداء..

فجأة.. ظهر باب مختلف الهيئة واللون، فقد كان أشبه بأبواب القلاع الحربية.. أما لونه فكان فضيًا لامعًا مغري الناظرين.. اكتمل ارتسام الباب وظهر مقبض ذهبي مزخرف، توجه ببطء إلى الباب متمنيًا أن يصل إلى جواب ما يدور بعقله، أيمسك المقبض وضربات قلبه تزداد، فُتح الباب بكل سهولة ليجد ممرًا صخريًا مظلما، وما أن خطت قدماه أولى الخطوات بذلك الممر حتى انغلق الباب وشعر بيدٍ تدفعه لينزلق مكملًا ذلك الممر زاحفًا حتى انتهى به الحال بالوصول إلى غرفة كئيبة المنظر بنية الأثاث والجدران، وقف مستطلعًا ما حوله ليجد رجلا ذا لحية بيضاء كثيفة وكأنها لم تُحلق منذ بداية الخليقة يبدو عليه الوقار، جالسًا على مكتبه الخشبي ناظرًا له بعينيه البنيتين المتواريتين خلف نظارة طبية قديمة الهيئة والطراز، اقترب وائل بخطوات مترددة من ذلك الرجل حتى أصبح مواجهًا لمكتبه قبل أن يبدأ وائل الحديث:

. أنا معرفكش، لكن عارف أنك ورا كل حاجة..

قلب الرجل الأوراق الصفراء البالية والتي تشبه تلك التي وجدها وائل بالغرفتين، قبل أن ينظر إليه ويبدأ بالكلام..

. شايف القلم ده؟

وجه ذلك السؤال وهو يلوح بقلم ذهبي اللون بيده، قبل أن يستكمل:

. ده ماضيك وحاضرك ومستقبلك، ده إلى بيخليك تبدأ وده اللي بينهيك ده إلى لو عملت بيه خطين في ورقة صفرا هيبقوا طريقك بدون ما تفكر أو تتمرد على طريقك، أنت دورك تنفذ وبس والناس تقرأ تسقفلي ملكش أي حق أنك تفرض نفسك أنا اللي بحط مصيرك وقدرك..

أضاق وائل حدقتي عينيه متأملًا حديث ذلك الرجل قبل أن يتساءل وائل قائلاً:

. أنت مين؟

ليرفع وجه الذي يتحدث عن الهيبة ويضع عينه في عين وائل..

. أنا اللي خلقتك ووجدتك..

. أنت عايز مني..

. أنا مش عايز منك حاجة أنت أصلًا ما تملكش حاجة.. ده اللي لازم تفهمه، أي حاجة بتعملها مش بمزاجك وصدقني أنت من غيري ولا حاجة مجرد بياض ورقة مفيهاش ريحة الحبر..

. أنت ليه بتعمل فيا كدا إشمعنى أنا؟

. أنت أيه؟!.. أنت ولا حاجة أنت شوية حبر أسود مالهمش لازمة..

. ومريم وبتول..

. برده حبر أسود، لكن في الحقيقة أنت مميز.. عشان كده أنا دخلتك هنا عشان أعرف بتتمرد ليه، أرضى بدورك ونفذه، أنا اللي بكتب مش أنت..

. وأنا حبر

يرفع عينه مرة أخرى ليرد بهدوء..

. اه ودخلتك هنا عشان أعرف أنت بتتمرد ليه

. وأنت

. في حاجات مش لازم تعرفها فكر في نفسك الأول يا وائل

. وليه معملش إلى أنا عايزه ليه أعيش الحياة دي؟

. عشان أنا عايز ده

. هو أنا أول حد اتمرد؟

ابتسم الكاتب بسخرية وهو يداعب خصلات لحيته البيضاء قبل أن يُجيب:

. لا فيه غيرك كتير مكنتش ليهم نهاية حبستهم في اللاشيء، كتاب وقفلته وأنت تستحق نفس العقاب، بس يمكن خليتك تخشلي عشان شخصيتك حبيتها أكتر من أي شخصية تانية واتعاطفت معاها، مع أن مش من حق الكاتب يتعاطف معه الشخصيات وإلا هما إلى هيمشوا الحكاية، وأنا مش بحب النهايات المفتوحة.. اسمع القدر يا وائل ومتتمردش..

. يعني أعمل أيه نهاية كل ده أيه؟

ليرفع عينه لوائل مرة أخرى ثم ينظر إلى الأرض بنظرة هدوء قائلا:

. الموت..

صرخ وائل غاضبا:

. لييييه؟

. أنا عايز كده وما دام أنا عايز كده، النهاية مش هتتغير مهما عملت..

. وأنا هتمرد..

. وأنا هحبسك وأضيعك وأحطك في المجهول وأقفل عليك لآلاف السنين متنساش أني أنا إلى خلقتك..

تقدم وائل مسرعًا نحو الكاتب والشرر يتطاير من عينيه، ففتح الكاتب قلمه بسرعة وبدأ بالكتابة في ورقته الصفراء، ليختفي كل شيء أمام عيني وائل ويبتلعه الظلام..

***

. يا وائل يلا يا بني هتأخرنا..

يعلق نظرة على الباب بلا مبالاة، ليفتح الباب أمامه ليجد ثلاث فتايات يأخذون شكل مريم ليتحدثون بصوت واحد

. مش يلا بقى هنتأخر..

لينظر لهم بذعر ويتراجع للخلف

ليركضن نحوه ويتحولن إلى مسوخ، ليصرخ وائل

وائل أنت صحيت؟

فتح عينيه ليجد نفسه واقفًا بغرفة الفندق أمام المرآة والغرفة تعم بالفوضى، نظر إلى مريم المتحدثة بعين مستيقظة والأخرى لا زالت تحاول ليجيبها صارخًا:

. ابعدي عني..

لتنظر له بغرابة قائلة:

. صاحي بدري يعني وعامل كركبة ودوشة؟!

. بقولك ابعدي عني.. ابعدوا عني كلكم.. عارفة تبعدي عني ليه.. لأنك مجرد حبر أسود على الورق..

. أنت بتق...

لم تكمل حديثها ليراها تتلاشى أمامه وكأنها لم تكن، لم تظهر أي ملامح اندهاش على وجهه فقد اعتاد على ذلك، أعاد النظر إلى المرآة متأملًا هيئته مفكرًا كيف سيتخلص من ذلك الحبر الأسود الذي حتم عليه غداه يتمنى ملاقاة ذلك الكاتب من جديد ليضع أنياب تمرده على عنقه ليعلن تمرده وفراره من سجن الأوراق، ذهب إلى حقيبة ملابسه ليلبس أفخم ما لديه من ملبس ويتأنق أمام المرآة وكأنه حاكم العالم وسيلقي خطابا لرعيته، وجد نفسه فجأة بشوارع المدينة ولكنها كانت خالية تمامًا من المارة لا أحد سواه بها، ليكمل مسيرته بدون أي اندهااش، فهو يعرف من الذي فعل ذلك..

. يا وائل أقف هتقطع نفسي

نظر خلفه ليرى بتول تهرول عليه حتى لحقت به في مشهد مُعاد على ذاكرته، همت بوضع أناملها على خصلات شعره إلا أنه منعها من ذلك.. لتستكمل حديثها:

. متزعلش نفسك عشان خاطري..

. عالأساس أنك زعلانة عشاني ولا هو عايزك تكوني زعلانة؟

. أنت كويس يا وائل ايه إللى أنت بتقوله ده؟

. أنا مقولتش حاجة غلط أنا خرجت عن النظام مش أكتر ومش هرجع..

أنهى جملته وبدأ النظر حوله وهو يصرخ قائلاً:

. بقولك مش هرجع.. أنت سامعني؟!

همت بتول بالنداء عليه ولكن لم يسعفها الوقت فقد سقطت أرضًا هي الأخرى وبدأت بالاختفاء تدريجيا.. ومن بعدها كل شيء ليعم الظلام، أما هو فلم يستسلم لفقدان وعيه فشعر وكأنه يسقط من أعلى ناطحة سحاب، ليسقط على الأرض، يفتح عينيه يجد نفسه في غرفته البيضاء، هم واقفا ناظرًا حوله كمن ينتظر إشارة التحرك، وبالفعل ظهر ذلك الباب الفضي الذي قاده إلى الكاتب فأسرع تجاهه فاتحًا إياه ليسقط بالممر مرة أخرى.. حتى وصل إلى غرفة الكاتب..

هب واقفًا ليجد الكاتب واقفًا أمام مكتبه وصوت الموسيقى الصارخة يعلو في الأجواء بينما يلوح الكاتب بقلمه تزامنًا مع إيقاع الموسيقى وكأنه المايسترو، نظر حوله ليجد أشياء عدة تظهر في الغرفة ومن ثم تختفي.. حتى ظهر كلتا الفتاتين "مريم وبتول"، وقفتا دون النظر إليه وكأنهما لا تعرفاه.. وكأن كلا منهما قد تحولتا إلى إنسان آلي، تقدم وائل ممسكًا بأحد المقاعد ليطرحها أرضًا في غضب بَين، لتتوقف الموسيقى ويختفي كل شيء مرة أخرى، ولم يبق سواه هو والكاتب الذي توقف عن التلويح بقلمه ونظر له بغضب متسائلاً:

. أنت وصلت هنا إزاي؟

. خرجت عن نظامك أنا مش هموت زي ما أنت عايز..

أومأ الكاتب رأسه وبدأ بالضحك حد القهقة سخريةً من حديث وائل قبل أن يقول:

. هكلمك بالعقل لآخر مرة يا وائل ده القدر، وما دام أنا اخترته مقدرش أغيره حتى لو أنا عايز كده، حقيقي أنا بشفق عليك ومش عايزك تموت بس كل حاجة لازم تنتهي كدا..

تقدم وائل ببطء نحو الكاتب لتنزل بعض الدموع من عينه قبل أن يتساءل:

. وأنت ليه اخترت أني أموت أنا مش عايز أموت.. وليه بتول ومريم موصلوش ليك زيي ولا شافوا اللي أنا شوفته؟!

. ده لأنك بتفكر في حاجات مينفعش تفكر فيها.. أنت مجرد دور وبس.. ده سبب أني وصلتك ليا وخلاني أكلمك، أما عن موتك.. فلازم تفهم أن قلمي هو اللي بيكتب النهاية.. عمرك سمعت عن شخصية هي إلى بتكتب نهاية قصتها؟!.. ده شيء مستحيل..

نظر وائل إلى الكاتب بغضب شديد قبل أن يقول:

. يبقى اتفرج على حادثة أول مرة تحصل في تاريخ الكتابة..

خطف وائل القلم الذهبي ليطعن الكاتب عده طعنات في عنقه ويسقطه أرضا، قبل أن يتحدث الكاتب بصوت يكاد لا يسمع.. قائلاً:

. غبي أنت مش بس نهيت نفسك أنت نهيت على كل حاجة..

وبمجرد نطقه لتلك الكلمات بدأ كل شيء في الاختفاء أمام عيني وائل والتحول إلى البياض وصولًا إلى جسده الذي بدأ بالتلاشي تدريجيا.. ليعم الظلام الأجواء، ليبقى الكاتب بمفرده ليفتح عينيه..

***

. هو يا دكتور مقتنع أن وائل هو إلى ضربه لحد دلوقتي، مع أن الكاميرات اللي في المكتب جايباه وهو بيضرب نفسه كذا مرة بالقلم في رقبته..

. هو حضرتك تقربي للأستاذ محمد؟

. اه أنا مراته يا دكتور..

. طب ومين وائل ده بما أنك مراته يمكن يفيدنا في حالته..

. دي شخصية كان عاملها في روايته الجديدة والمفروض أنه كان هيموت في نهاية العمل بس دخلت عليه إمبارح لقيته غرقان في دمه والقلم بتاعه جمبه اتصلت بالإسعاف ولما فاق زي ما حضرتك شايف عمال يقول أسف يا وائل ومش هموتك صدقني.

لكل منا قضيته ومعركته التي لا يعلم عنها أحد، لكل منا قلب يحوي الكثير من كل شيء فلا تغرنك ابتسامة ذاك أو عدوانية ذاك أو نجاح ساحق لآخر.. فكلنا مصابون.. كلنا مثيرون للشفقة بشكل أو بآخر ولا سبيل للنجاة سوى بإدراك أن خسارة النفس تعادل خسارة العوالم أجمعها والفوز بها يجعل من تلك العوالم نطفة بين يديك.. بإدراك أننا لسنا هنا عبثا فلا ختام لحياتنا سوى بإتمام غاية وجودنا منذ البداية وأن الله لم يخلقنا شعوبا وقبائل كأعداد فقط وإنما لنجعل من تلك الرحلة ما هو أقل وطأة كي نعبرها بسلام كي نصل إلى المرسى.. إلى الوطن..

الفصل الأخير

ولكن...

بانسيه محمد البنا

يناير 2014..

في إحدى الكافيهات المتواضعة حيث تتعالى أصوات الجميع كما لو أنهم في حلبة سباق ويتناثر الدخان مكونا سحابات رمادية تحمل من جوف المرء بعضا، يجلس بضعة شباب يتحدثون في كل شيء واللاشيء لا يختلف منهم واحد عن الآخر كما لو أنهم نسخ مكررة بابتذال، تكتظ النفوس أجمعها بندبات لا علاقة لها بالسن، إننا في زمن لا قواعد فيه ولا ناج من سوئه إلا من رحمه الله..

(ياسين) على سبيل المثال طالب قصير وبدين بعض الشيء، لديه من المكابرة ما يكفي ملء الأرض ويزيد، جاف وحاد الطباع، ينتقد كل من حوله بأسلوب ساخر عابث..

وسط كل ذلك العبث كان هناك استثناء واحد، لوحة فريدة لا سبيل للزمن بتكرارها، قد لا تفهمها ولكنك كذلك لن تستطيع إبعاد ناظريك عنها، (أحمد) طالب في الفرقة الثانية في كلية تربية تلك المرحلة البغيضة حيث تكن عالقا بين "أنت كبرت على الكلام ده" وبين "أنت هتعملي فيها راجل".. لا تستطيع الجزم بما ينتظره من حولك أشخص بالغ عاقل أم طفل يودع آخر خيوط طفولته.. دائما ما يجلس بين أصدقائه وفي داخله يردد بأنه لا ينتمي إلى هنا.. كان أشبه بجرامافون مذهب في عصر التكنولوجيا، نعم في وقت ما كان لا يمكن الاختلاف على قيمته ولا غنى عنه في أي بيت ولكن ذلك الزمن قد ولى وذهبت معه الأذان الراقية والنفوس الصافية، وجوده الآن لا ينفي حقيقة أنه شيء قيم وراق لكنه

في الوقت والمكان الخطأ فحسب، لطالما كان حاضرا بينهم بجسده ليس إلا.. بينما كان شاردا اقتطعه صوت ياسين بقوله:

. إيه يا عم دماغك فين؟!

. أنا معاكوا.. أنا تمام محتاج أنام بس

. حجة كل مرة ما تغيرها طيب عشان بنزهق

أجاب على سخرية ياسين بابتسامة باهتة لا تمت لملامح وجهه ومكنون قلبه بصلة:

. آسفين يا صلاح

فكل ما يريده ألا يترك مجالا واحدا للتبرير والإشفاق، كان ينظر إلى الأشياء بعين قد نطلق عليها عينا ثمانية الأبعاد، إنه يرى الباطن من كل شيء ولم يكتف يوما بما هو ظاهر، قد ينشغل الجميع بتأمل القمر بينما هو يهيم حبا في نجمة ساطعة وحدها بعيدا عن مرمى بصر الجميع، يشعر بالانتماء تجاه كل ما هو فريد وغريب ولا يجتمع الناس حوله كالذباب، قد يتملكه اليأس من رأسه حتى أصابع قدميه في لحظة فيشعر أن النهاية قريبة ومن ثم تداعبه نسائم هواء أكثر لطفا من العالم أو قطرات مطر تعادل برد روحه فيتناسى ماهية اليأس ويشعر كما لو أنه ما رأى حزنا قط.. تأسره البساطة والهدوء لذا نجد أن من هم مثله دائما ما تكن الأمور هنا في عصرنا الحالي أشد وطأة عليهم من ذويهم.. أيقن أحمد منذ وقت طويل بعدم اكتراث من حوله لحاله لذا فقد توقف عن الشكوى حتى وأن كان يعتصر ألما، قرر العيش كمهرج يرقص فوق الأشواك، يمتص دمعاته حتى يموت فوق المسرح ومن ثم يصفق له الجماهير بحرارة كعادتهم ولكنه لن يضطر للنهوض مرة أخرى فقد سقط الإثم عنه وتم إطلاق رصاصة الرحمة ممن سواه..

***

. يا جدعان تعالوا نطلع ع القهوة نغير جو عشان إحنا اتحط علينا في الامتحان ده حطة التنين

هكذا تحدث سيد بلامبالاة متناسيا كل ما هو عادى أهواءه وراحة باله التي لا تقدر بثمن، إنه ذلك الطالب المعروف وسط الجموع ب "الفريزر"، حتما هنالك أسباب منطقية لتلقيبه بذلك، فإنه واحد من هؤلاء الذين لا سعة لهم بالجدية والحزم، يستقبل كل شيء بلا مبالاة، بالنسبة له لا شيء في هذه الدنيا يستدعي البكاء والحزن، يحسده من حوله على تلك الهبة حيث أن الدنيا لا تحتاج سوى القليل من الوعي.. القليل جدا..

أحمد: لا معلش روحوا أنتوا أنا مليش مزاج

ياسين: مالك يا عم مكشر ليه وشايل طاجن ستك امتحان وعدى يعني متكبرهاش وأنت يا عم محمود متبقاش تطلب ورق إجابة إضافي بتخضني على نفسي وربنا..

وكعادة الأمر قابل محمود مزحاتهم بابتسامة باردة لا تكفي لإشباع سخريتهم ولا تختلف كثيرا عن أحمد إلا أن أحمد قد توقف عن محاولة إظهار عكس ما يبطن وأن خالف ذلك أهواءه التي تمقت عباءة الذبول والانطفاء، ما عاد في وسعه سوى الصمت ولا طاقة له بأكثر من ذلك، سايرهم أحمد بقلبه المثقل الذي يردد في كل حين: "اللهم الخلاص"، إنه واحد من هؤلاء الذين تحركهم ضمائرهم، يتنفسون السعي حتى وأن تخلله الفشل وعدم الحصاد لما يرضي، لذا فكان لا يؤلمه سوى ما بذل.. لا سبيل له بتقليل الجهد من ناحية ومن ناحية أخرى لا سبيل له بمرارة الظلم التي اجتاحت فمه منذ لحظة دخوله تلك الجامعة..

بطرافة باغت سيد عالم أحمد الذي يأخذه على حين غرة ممن حوله وقال: أستاذ أحمد تحب تقول أيه في المايك بمناسبة فوزك بجايزة أحلى تكشيرة في المجرة..

. لا يا عم أنا فل والله.. حاولت الصبح اعدي الشارع من غير ما أبص وأسيب القدر ياخد مجراه بس كان نايم ساعتها باين..

ضحك الجميع بعبارات ساخرة ولم يعلم أحد أنها لم تكن بمزحة إنما هي استغاثة وخيط أمل أخير.. إنه وحده في ذلك الأمر.. وحده تماما ومن ثم تعالت الأصوات بداخل رأسه ولم يجد لإحجامها سبيلا.. فقرر الانسحاب فورا..

. أنا هروح بقى سلام

محمود: سلام أيه بس استهدى بالله كده وصلي ع النبي.. ده مجرد امتحان يا أحمد مش نهاية الدنيا ولا مقياس لنفسك أو لسير أقدارك.. ربك وعدك بأنه لا يضيع أجر من أحسن عملا.. وأنت تعبت وعملت اللي عليك فسيب الباقي عليه، كل اللي بيحصل ده مجرد فصل واحد من فصول قصة طويلة عريضة ربك المتكفل بكل دقيقة فيها وعارف ومطلع على كل خطواتك بس بيحبك وبيختبرك ومستني يشوف منك توكل وحسن ظن فيه وفي باقي القصة.. ومسيرها هتظبط وتروق والله بس أنت قول يا رب..

لطالما كان محمود يفضل الصمت لكونه لم يجد نفسه وسط عباراتهم المبتذلة، تؤرقه فكرة توجيه انتباه الجميع إليه حيث لا مفر من تلعثمه وعجز بلاغته وحكمته عن الإفصاح عن نفسها في ظروف كتلك إلا أنه كان يعرف متى يتحتم عليه التدخل، بشكل أو بآخر كان يشعر أن مسئولية العالم تقع على كاهليه فيساعد ذاك وينصح ذاك ويعطي الأمل لآخر متناسيا نفسه.. إنه ذلك الطالب المعروف (بالدحيح) صاحب النظارة المكعبة والملابس المهندمة دائما، من يراه يشعر كما لو أنه قد خلق لأجل العلم ليس إلا.. ينهم الكتب والمراجع كما ينهم الناس أطباق الحلوى، ولكن..

قال ياسين بسخرية أشد وطأة من كونها سخرية فقط مربتا على كتف محمود بشيء من الغلاظة:

. الله.. عظمة على عظمة يا ست.. قول يا عم واشجينا ما أنت طبعا لازم تشوف الدنيا بمبي وأنت عندك شوفير وبتقول بابي ومامي والحياة عندك آخر منجهة وبتطلع الأول كل سنة، ناقص بس تطلع القمر وتبقى جبرت..

قام أحمد بتدخل سريع يضع به حدا لياسين ويمنح عن طريقه هدنة سلام لمحمود الذي لم يجد ما يقوله فاقتطعهما بقوله: سيبك منه يا محمود دة دماغه لحست.. والله الواحد ما عايش إلا بالكلمتين بتوعك دول..

في السابق كان أحمد يتخذ ردود أفعال معادية في مثل تلك المواقف إلا أنه قد اعتاد على تجنب نقاش يؤول إلى اللاشيء، لطالما امتلك أحمد نظرة ثاقبة لكل من حوله وخاصة لما وراء الستار لذا فإنه يعرف يقينا أن كل ذلك ما كان سوى أساليب دفاعية يستخدمها ياسين عبثا كي لا يتحول إلى لقمة سائغة لمن حوله، بينما كان يجاهد لتجنب المرضى فأصبح دونما وعي واحدا منهم، يعامل من حوله كخصوم سواسية.. لقد كانت هي وسيلته الوحيدة لحماية نفسه، ومن ثم استأذن أحمد للرحيل في هدوء..

ها قد هرب من جحيم الخارج وفي قرارة نفسه يعلم أنه في كل خطوة تقربه من بيته هي بمثابة جحيم آخر ولكن أشد وطأة.. وقف أمام أعتاب منزله وتنفس الصعداء كمن يودع آخر ذرات الأكسجين.. فتح الباب بخلسة كي ينجى من تساؤلات معتادة يتبعها قوله المبتذل "أنا بخير" ومن ثم تنتهي بعبارات أشبه بخناجر مسمومة.. رغم اعتياده عليها إلا أنها تؤلم كما لو أنها الأولى..

باغتته أمه كعادة أغلب الأيام بقولها:

قالب وشك ليه

تعبان وهنام

أغرفلك

لا مش جعان

يبين لها بأنه لا يهتم بأي شيء ولكنه كان يردد في جوفه كل يوم متسائلا:

كيف لها ألا تلمح ذلك الخوف الذي يبتلعني، ألا تنصت لما عجز لساني عن الإفصاح به.. كيف لي أن أكن أمامها كمن أتى بلا مسائلة وفي قلبه قد اجتمعت الحاجات كلها.. كيف لي أن احتمل تلك الوحدة وأمضي هكذا بلا رشاد وعون..

ما عاد لديه شغفا للدراسة كالسابق إذ أنه ظل يبذل بجد متفاني في أرض أحلامه اثنتى عشرة سنة كي يستطيع الالتحاق بكلية التجارة الإنجليزية، قد يتعجب البعض كونها ليست بكلية مرموقة في نظر الأغلبية إلا أنها كانت كفيلة بإيصاله إلى ما يريد ويرضى، كما أنه قد سئم حد الإعياء تلك المناهج المليئة بكلام مبتذل أبكم يحفظه كما القرآن كي يتقيؤه في ورقة عقيمة لم تكن كافية يوما لتحديد مستقبل أحدهم ولكنها مصر!! لم تجر الأمور كما خطط لها، لم يتوقع يوما ذلك الخبر الذي جاءه كالصاعقة ليلة ذهابه لتسجيل رغبات الكليات، أخبرته أمه بأن أباه قد حرمه من تلك الأموال المخزنة لأجل يوم كهذا بلا سابق إنذار، كان التحاقه بما لا يحب كضربة في الرأس ومن يومها ينزف رأسه، في ذلك الحين قام أحمد بتنازله الأول ومن ثم ما عاد يميز بين الصواب والخطأ، تشابهت الطرق في عينيه وتحولت حياته إلى سلسلة من التنازلات وما عاد في وسعه إصلاح الأمر، كانت الخطوات بالنسبة له فيما لا يريده كالمشي على الجمر يوقن بداخله أنه ما من سبيل لإكماله حتى

النهاية ولكنه يكمل على أي حال كنوع من الفضول ووسيلة عبثية لإرضاء ضميره، لا يملك ماضيا يحمل له طفولة مقبولة، بحوزته حاضرا لا يملك لاحتماله سبيلا والمستقبل في عينيه كثقب اسود يحمل المرء إلى المجهول ويختبئ كطفل مرتجف في عباءة اليوم، وبالرغم من كل ذلك كان يستخدم الدراسة كدرع للهروب من واقع حياته والاستفادة مما عداه وربما لمواجهتها ولكن بسبيل أقل وطأة، للتخفيف من حدة أصوات صراخ أمه وأبيه وتجنب المزيد من الوعي ذاك الذي يدفعه إلى الحافة يوما بعد يوم، كان بيته كحال معظم البيوت المصرية التي ينقصها من يستحق لقب "الرجل" فتقم امرأة تحتمل من مجتمعها لقب "ناقصة عقل ودين" بكلا الدورين: الأم والأب إلى جانب دورها في العمل، كان يعاني من غياب أمه التي تنغمس في أهوال الحياة وأعبائها التي لا ترحم، كانت كساقية لا تتوقف عن الدوران، تعمل ليلا ونهارا وتنم بالكاد ثلاث ساعات، إن أراد البعض اتخاذ مثالا للقوة ستكن الجبال هي التشبيه الأمثل إلا أن أمه قد فاقت ذلك الحد بكثير، فلا ينف أحد حقيقة أن الجبال معرضة للسقوط والتفكك وذلك لا ينطبق على والدته.. على الأقل حتى الآن..

ما كان في وسعه اللوم ولو بمقدار ذرة ولكنه كذلك لم يستطع التوقف عن النحيب عند حاجته إليها، لم يستطع أحمد حتى الآن فك شفرات علاقته بأمه لا يعلم سوى أنه يحبها ولا يجد للعيش دونها سبيلا إلا أنهما كانا بمثابة عود كبريت بجانب قنديل مشتعل بنيران ملتهبة، شمس وقمر، لا سبيل لالتقائهما عند نقطة اتفاق، لم تكن تعرف أي شيء عن وليدها، ما يحب وما يكره، ما يريد وما يعاني، لطالما كانت هزائمه وانتصاراته تمتلك ذات اللون في نفسه وفي عينيها، تراه شخصا فارغا قد سوّلت عليه نفسه ولا يملك للعيش بتلك الحياة سبيلا مادام على ذلك الحال، قد يبصر المارين ما به ولكنها لا تبصر سوى كونه بمثابة ابتلاء الله الذي لا فرار منه، تقوم بدورها كاملا في رعايته.. إنها غريزة

الأم.. إلا أن ذلك لم يشمل عناقا واحدا.. لم يشمل حديثا حانيا يحتضن يومه... كلما حاول شرح نفسه كانت محاورتها أشبه بدائرة ذات نقطة مركزية واحدة وأقطار محدودة أينما ذهب سيعود إلى ذات النقطة، ربما يكمن الأمر وراء حقيقة أنها كانت تبصر به والده كما لو أنهما وجهان لعملة واحدة.. تقحمه في مقارنة عبثية فتجعل له من بغض والده بعضا ومن نبذه الكثير.. تحتم عليه احتمال عبء إثم لم يقترفه وبغض يفوق احتماله.. ولكنه اعتاد على أية حال.. كان يربت على صدره بلطف في كل حين كمن يحاول الثبات عبثا لعبور يوم آخر مرددا بلا توقف: "لا بأس"، بينما كان قلبه يفيض بكل بأس.. أما عن السعادة فهي لا تتعدي حدود رأسه المثقل حيث يمكنه خياله الجامح الأشبه بآخر ذرات الأكسجين من الإبحار لآلاف الأميال، إلقاء النكات، إعادة صياغة مشاهده اليومية كما يحب ولقاء من يريد وقتما يريد بينما هو جالسا على أريكته.. كان لخياله ذات المفعول الذي تمتلكه المهدئات، لوهلة سيشعر كما لو أن حياته تمثل سطرا في هدنة ومن ثم يزول الأثر سريعا ويبقى الحطام..

إن سأله أحدهم كيف هو الأب فلن يعرف، فقد كانت الدنيا أبخل من منحه ذاكرة أقوى لتذكر طفولته، كان يود لو يعود إلى الوراء قليلا ليعرف كيف هو عناقه لمرة واحدة،، يمقت اسمه المتبع بلقب عائلة لا يمت لها بصلة ولم تكن سوى نصيبه من جحيم الأرض، لم يعرف كيف هو الأمان والحنان سوى من بيت واحد احتضنه كما لم يفعل أحدهم؛ بيت جده وجدته، هدية الله التي استعادها مبكرا.. مبكرا جدا.. تركه الجميع في الطريق كنبتة بلا جذور وبلا أرض في دنيا لا تعرف سوى الدهس على من هم مثله!! أكثر ما يؤلمه كونه يصطدم كل يوم بحقيقة واحدة تخبره بأنه لا مفر.. ليس هنا.. لا سبيل له بطيف سلام على تلك الأرض.. يمتص الجميع دماءه بلا رحمة كبعوضة تمتص غذاءها حتى الشبع ولا تعبأ إن كانت تلك هي القطرات الأخيرة أم لا.. إنها الفطرة البشرية التي تدفع المرء الخدوم إلى حافة الجفاء والتخلي عن إنسانيته

إن لزم الأمر.. كان غريبا أينما ذهب ولسبب أو لآخر لا يعجب أحدا.. لا زال يصارع تلك الأصوات التي يرتفع صداها بالليل حيث تزاوله نفسه لإنهاء الأمر وصنع رصاصة رحمة بيديه .. بشكل أو بآخر كان يجد السبيل للتملص من نفسه في الصباح ولكن كانت لساعات الليل الكلمة الأخيرة حيث ترتطم في وجهه هزائمه واحدة تلو الأخرى.. يبدو أنه للوحدة مواقيت محددة تقتنص بها من لا تشرق الشمس في قلوبهم حيث ترتسم عليها آثار أقدام كالحفر في الصخر تلك التي عجز الوقت عن محو آثارها.. تُرى بأي إبداع خلق الله الانطفاء والاشتعال.. بأي إبداع خلق ذلك الألم..!!

تمر الأيام ويزداد صمته يوما تلو الآخر، لا فرق لديه بين الأمس، اليوم والغد وما يليهم، مجرد أيام تحمل تواريخ مختلفة وحسب، ينقسم داخله إلى نصفين؛ نصف يريد البقاء بعين مغلقة حتى ضوء القطار والآخر يتمنى لو يضع الله في طريقه زهرة تغنيه عما يقدم عليه..

لاحظ من حوله اختلافا بارزا في شخصيته، حديثه ونواياه ولكنهم لا يجدون تفسيرا بعينه ولا يعبأون على أية حال ولكنهم البشر؛ تواقون للتمحص في كل شي عوضا عن الانشغال بإصلاح أنفسهم...

ياسين: أيه يعني مش عوايدك تطول في القعدة..

أحمد: يعني كده مش عاجب وكده مش عاجب يا عم ياسين

ياسين: لا يا عم مقولناش حاجة

بلا مقدمات اقتطع حديثهم وقال بنبرة حادة يتخللها رجاء حنون:

لازم تعرفوا أن الدنيا دي أتفه من أننا نشيلها على محمل الجد ولو للحظة.. العمر قصير والقلب مش حمل زعل عمال على بطال.. عيشوا اللحظة واليوم بيومه.. وقدروا النعم قبل زوالها.. خليكوا سند لبعض

وهونوا الرحلة عشان تعدي لأنها قاسية بما فيه الكفاية مش هنبقى إحنا والزمن..

لم يترك لهم مجالا للسخرية واستأذن للرحيل وقال بعين تحمل دمعات متحجرة "أشوفكم على خير".. كان يود لو يحتضنه أحدهم، لو يتشبث به أي شيء ويكن حاجزا بينه وبين أصوات رأسه الصاخبة ولكنه يعلم بأنه ما من فائدة على أية حال.. كل شيء ما هو إلا خطوات باخسة تقربه إلى قدره.. لقد كان يودع الأشخاص والأشياء، ينظر إلى السماء بتمعن وفي جوفه يعلم أن اللقاء قريبا، يستشعر قلبه نسائم الهواء المتلاطمة على جبينه وترتسم على شفتيه ابتسامة عريضة للمارين ووحده الله يعلم ما خفي من الأمر، يراقب من حوله كمن ينظر إلى آخر الشيء، يتعمد الإكثار من النصح والعون، قام بإزاحة كل ما عدى ذلك من خلافات وغيره حيث إنه لم يترك لعقله مجالا للتذمر ولا لندبات قلبه سلطانا عليه، إنه لا يريد سوى الرحيل مطمئنا بأنه لم يترك غصة واحدة في قلب أحدهم ولو دون قصد، يريد أن يذكره من حوله بالخير ليس إلا.. يبدو أنه على حافة قراره المنتظر...

عاد إلى بيته، سأل أمه بنبرة حانية عن أحوالها رغم علمه بأنه لن يسمع ما يرضيه ولكن لا بأس تلك الليلة، دخل غرفته وأغلقها بإحكام.. ينجرف في تخيل المشهد كاملا كما لو أنه قد حدث من قبل وجاء هو فقط ليجسده، قرر أن يطلق سراح ما في مكنونه إلى العالم للمرة الأولى والأخيرة..

لم يكن يعلم ماذا سيكتب أو بمعنى أدق كان ما به أعظم وأعتى من بضعة كلمات على ورقة بكماء تشاهد الضحايا في صمت، واكتفى بقول: لقد حاولت.. صدقوني ما وجدت حتى الآن في نهاية كل مطاف وطريق مشيته بأقدام حافية بلا سبل وقاع كل بئر تحملت به عناء المجهول سوى حقيقة واحدة وهي أنه لا فائدة، مهما حاولت، أينما ذهبت وكيفما بدأت، لا فائدة.. بالنسبة لي؛ لقد سقط الإثم عني منذ هذه اللحظة فلا يلومني

لائم، ما عاد هنالك من يعبأ ليصغى وما عاد هنالك ما يعود لي؛ ليس هنا.. أقسم أنني قد حاولت..

أمسك بيديه مقبض النافذة، أدارها كما لو أنها انطواء للعوالم أجمع، ثم أطلق نظره إلى السماء ولكنه لم يطل الأمر تلك المرة فقد كان يعرف وجهته...

في تلك اللحظة باغته صوت آذان الفجر بقول: "الله أكبر".. للحظة تقلصت الدنيا بعينيه وتلاشى كل شيء حيث انسابت أحرفه كما الماء بين ضلوعه وأزالت غبار أسبابه التي جعلته كالمغشي عينيه، استشعر ما سمعه كما لم يفعل من قبل، شيء ما قد جذبه بعيدا عن حافة النافذة، شيء بداخله لا زال يريد لنفسه نهاية أخرى تليق بمن هم مثله، هنالك صراع بين امتنانه لما حدث وروحه التي تتوق إلى النجاة، لا يعرف ماذا يفعل.. ما الذي ينتظره في حياة قد بعث إليها مرة أخرى بعدما قد أعد العدة للرحيل، توضأ وصلى الفجر باكيا مرتجفا وكعادة الحال دعا بذات الشيء؛ الخلاص، يتزاحم بداخله الشيء وعكسه.. كانت الجدران كما الكمائن حيث شعر بأنه يتنفس شيئا لا يشبه الأكسجين فقرر انتهاز ساعات الليل المتأخرة في الاختلاء بالشوارع الخالية ونسائم الهواء الباردة النقية التي تخلو من عوادم السيارات والأنفاس المكتظة، خطر على باله محمود الذي لم يأت اليوم إلى الجامعة على غير عادته، حدس قوي بداخله يخبره بضرورة الذهاب إليه، ذهب إلى منزله واسترق النظر إلى نافذته حيث اعتاد محمود على السهر لأوقات متأخرة منصبا رأسه في الكتب ومن ثم جحظت عيناه، توقفت الدقائق والثواني كمشهد سينمائي عندما لاحظ شيئا معلقا في النافذة، شيء يتدلى ويتأرجح للوراء وللأمام، إنه محمود ملتفا حول عنقه حبلا غليظا لم يكن بغلظة ما يحمله قلبه!!

***

كان وقع ذلك المشهد على أحمد كمن أصابه البرق بلا رحمة، لم يشعر بأطرافه فما شعر سوى بارتطامه على الأرض ولا سبيل لدموعه بالهطول، ومن ثم أطلق صرخة لم يتنفس العالم من بعدها.. لم يكن في وسعه

التفكير، بلا هدى اتجه إلى بيته بخطوات بطيئة ثقيلة، لم يكن يكاد يحمل نفسه، لم يستطع فتح الباب فلا سبيل له بأصابعه المرتعشة الباردة كما الثلج، سمعت أمه صوت حشرجة المفتاح في الباب، نظرت من العين السحرية فوجدت من يستند برأسه إلى الباب، فتحت وقبلما يتفوه بكلمة واحدة اقتطعها صوت أحمد قائلا بانكسار "مفيش حاجة تعبان وعايز أنام"..

قام بإلقاء نفسه تحت الماء البارد رغم عدم احتمال جسده لمثل تلك البرودة حتى في فصل الصيف، كان يريد ما يشغله عن ذلك الألم الذي يشبه وجع الأسنان ولكنه في روحه، قام بالتقوس على نفسه كما الجنين محاولا النوم وإيجاد مفر عله يستيقظ على رنين هاتفه باتصال من محمود ولكن بلا جدوى.. يفكر بصمت صاخب في كل شيء في الماضي والحاضر والمستقبل، يحاول استعادة أيامه مع محمود فلا يذكر علامة واحدة يبين منها نهايته، ظل على ذاك الحال حتى الصباح، ومن ثم اقتطع كل ذلك صوت بداخله لم يسبق له بسماعه، صوت كان كفيلا لنهوضه كمن لم يذق الماء قط وربما كمن مات من فرط الألم وتم بعثه لأجل شيء ما، لا يعلم سوى أنه هنالك مهمة جديدة قد اقتحمت حياته وأنه ما من سبيل للتوقف حتى إتمامها!!

***

إننا كما الجميع من حوله اكتفينا بالظاهر، منا من انشغل بالحقد فضلا عن السعي لبلوغ قمته، منا من انشغل بما لم يجيد سواه؛ التنمر والسخرية.. هنالك اعتقاد سائد كما لو أنه إقامة حد لا رجعة فيه بأن الطالب المتفوق لا حيز بداخله لما هو دون العقل، لا يشعر، لا يتألم، لا يحزن، ولا يعبا بشيء عدا ما هو من ورق ولكن لم يبذل أحدهم جهدا للتفكير في باطن الأمر ولو بمقدار ذرة، لم يخطر على بالهم لمَ يفعل ذلك وكيف وبأي ثمن.. يظن البعض أن محمود ما هو إلا آلة مبرمجة، شيء

من حديد، إلا أنه في حقيقة الأمر كان كل ما حوله مصمما بإبداع لدفعه لذلك الكرسي واحتضان ذلك الحبل كما لو أنه طوق نجاة مزينا بأكاليل من ورد..!!

"يا أيتها النفس المطمئنة.."

لم يكن عزاؤه بالأمر الجلي، كان يعج بمن يحركهم الواجب فقط ليس إلا.. رحل غريبا كما عاش غريبا.. يجلس أبواه كمن تناسى سقاية زهرته وأتى باكيا بعد ذبولها، ترتسم على وجهيهما علامات ذهول وتساؤلات لا يودان الوصول إلى إجاباتها.. ينظر أبوه إلى السقف نظرة فارغة بينما تعتصر أمه ألما لما آلت إليه حياتها وما جنت به على وليدها، لوهلة أصبحت المكاسب والمصالح التي لطالما احتلت الأولوية في أعينهما كورقة بالية يعبث بها الهواء.. كان كل شيء رتيبا أشبه بطريقة سير المصالح الحكومية في مصر..

ولد محمود وسط عائلة ارستقراطية لم يسبق له أن شعر في داخله بالانتماء إلى قوانينها حيث تحل لديها الأعمال والأشغال في المرتبة الأولى، لا تعبا بما يريده الفرد وبما يتطلع إليه فلا شغل لهم سوى بما يجب، بما يملأ البنوك ويجلب من السلطة والجاه ما هو في حدود السماء وذلك بالطبع لا ينطبق على مواهبه الفذة في الرسم والكتابة ورغبته العارمة لتعلم الموسيقى، يرون أن عبارات مبتذلة مثل كيف حالك، هل أنت بخير وغيرها ما هي إلا هراء لا حيز لهم به، بينما كان محمود لا يبصر نفسه سوى وسط الأحياء البسيطة التي تحوى أرواحا من ذهب؛ كانت عائلته تنتحب كما الأسد الذي قد أنجب قطة، دائما ما يريدون المزيد والمزيد، مهما فعل فلن يستطيع نيل إعجابهم أو تلقي نظرة رضا واحدة، في نظرهم لم يكن جهده كافيا رغم علمهم بأنه يبذل في سبيل إرضائهم كل ما أوتي من قوة وألم، كانت انتصاراته كجريدة الصباح وهزائمه بعدا آخر لنهاية العالم، دائما ما كان يتجرع نظرات ازدرائهم ولومهم على ما فعل

وما لم يفعل وما يتحتم عليه فعله، حتى أصبح لا يبين بين ما يستحق بالفعل وما لا يستحق، لا يجديه احتفاء العالم به أن كان أبويه يرونه في هيئة شيطان مسخ، قال أحدهم ذات مرة "العالم ليس كأمك، تغضب على أمك وتصرخ في وجهها في النهار وفي آخر اليوم تُناديك للعشاء، العالم سيتركك تموت جوعًا".. ولكن أبواه كانوا كما العالم.. فكيف له بمواجهتهما معا.. كان محمود لا يعبأ بروحه بمقدار ذرة، يمقت نفسه إلى الحد الذي لا حد له، ينظر إلى المرآة فلا يبصر شيئا، يتأرجح بين يقين يخبره بأنه لا أثم له، أنه ليس بذلك الحد من السوء ولا زال هنالك أمل في صلاحه وآخر يخبره بأن من هم مثله لا سبيل لهم سوى الموت.. الأسوأ من كل ذلك كان امتلاكه لنفس لوامة.. تلك التي تمتلك من القضاة قسوتهم وحيادية قراراتهم دونما شفقة.. وكذلك فإنها تمتلك من الجناة؛ الضعف وقلة الحيلة.. ولا يعرف أيهما هو.. لم ينصفه من حوله وكذلك هو لم يفعل!!

ما من بغض يعادل لحظة استيقاظه حيث يتحتم عليه ابتلاع يوم آخر لا يختلف عن سابقه واحتمال عبء الأمل في النجاة لليلة أخرى، يعيش وفي قرارة نفسه يأخذ من فكرة الموت أملا بوجود سبيل خفي وطوقا لعبور الأيام، كان ذلك الأمر هو وسيلته الوحيدة للثبات لذا قام محمود بإعداد ما يجب قبل رحيله وترك ما لم يستطع البوح به طيلة حياته القصيرة عمرا والطويلة ألما وحسرة وهي تلك الرسالة التي وجدها أبواه بعد فوات الأوان في دفتره الذي لم يحمل سواها:

قطرة واحدة إضافية كفيلة بإفاضة ذلك البئر المعبأ من رأسه حتى قاعه الذي لا يراه أحد.. لذا لا سبيل لهم بإدراك مصيبته يوما كما يجب.. كما هي!!

إنني في انتظار تلك القطرة.. مللت الغيمة القابعة فوق عيني.. فلا هي تمطر ولا تزول.. لن أقل إنني متعب تلك المرة.. لقد صار الأمر مبتذلا حتى لي.. إنني فارغ، فارغ مني وكل ما يتعلق بي لم تكتف الدنيا بجعلي غرابا

أسود وسط سرب من الحمام الأبيض والحال أني صرت الآن غريبا عني.. أعيش كالمتربص لنفسه ولا أعلم سوى أنني في خطر.. لا، لست في خطر منهم، الخطر بالنسبة لي لم يكمن يوما فيمن حولي كما رأيته بداخلي.. ما وجدت حتى الآن ما هو أكثر فتكا بي مني.. أنظر بداخلي فلا أجدني.. !! حتى وجهي، جسدي، ما عادوا لي.. لقد تركتني نفسي وانضمت إلى صفوفهم تلك الصفوف التي قد سئمت إحصاءها ولكن.. إنها بداخلي؛ فهي تحوي أكثر من أحببت وأغلى ما امتلكت يوما.. أعني ما ظننتني أملكه.. !! لطالما عانيت من وطأة الأرق ومن ثم الانغماس في كوابيس تجعل من تلك الساعات التي أغلق بها عينيي عقابا حيث تلاحقني الأشياء كلها وتجد لحصاري ألف سبيل.. لذا ما عاد النوم مفرا لي وما عدت أعرف كيف هي الراحة.. تزاولني النوافذ والحبال كل ليلة لمواساتي وإعادة يقيني بأنه هنالك من سبيل؛ فاطمئن وأغفو لليلة إضافية عسى تحمل نهارا لمن هم مثلي.. عسى تبعث لي بغراب يشبهني.. وربما تأتي لي بمعجزة تضع حدا لكوني ذلك الغراب وأجد للعيش هنا سبيلا.. يؤسفني أنني في تلك الدنيا باتساعها ما وجدت عزاء لي سوى فكرة الخلاص وإمكانية الرحيل مبكرا.. أتساءل عن فصل الختام.. ليلة أكتبه بيدي، وأخرى أدعوه ألا يتركني لما كتبت.. إنني لست خائفا.. ولكن يجب أن أخاف...

كمتاهة تنتهي جميعها إلى نقطة واحدة، كروما حيث إن كل الطرق تؤدي إليها، هكذا أنا، مهما فعلت، مهما حاولت، أينما ذهبت، دائما ما ينتهي الأمر بي، بحقيقة أنني ما دمت أنا؛ أنا فلا خلاص لي هنا ولا سبيل، أنا ذاك الجحيم الذي قد يخوّل لنفسي أن الجحيم الآخر حتما سيكن أقل وطأة وأكثر رحمة.. لا أريد لله أن يغفر لي بل أريد دفع ثمن ما فعلت بنفسي.. أود لذاك الجحيم أن يحرق عظامي مرة تلو الأخرى بقدر ما فعلت أنا كل يوم وكل لحظة.. إنني لست خائفا.. ولكن يجب أن أخاف..

تلك الأصوات.. إنها مخيفة للغاية.. لم أعد أحصى عدد المرات التي أفكر بها في إنهاء الأمر كله.. أوقن بأنني لا أملك زرا للتوقف وكذلك لا أملك الحق في اختراع واحدا.. ولكنني أعود في نهاية الأمر لأجد بأن بضعة حبات من ذلك المسكن قد تفي بالغرض.. أعني بأنه لم يفلح في مهمته

الأساسية فربما يفلح في أخرى.. ربما لا زلت امتلك بعضا من القوة وأشباه الصبر.. ربما إن بحثت قليلا سأجد سببا.. ولكن يبدو لي بأنني ما عدت أريد.. عجبا يا الهي؛ كم أن الإنسان ضعيفا، قد ينجو من الألم والحزن ومن ثم يغلبه السأم والانتظار.. أريد للمرة الأولى لتلك الأصوات أن تنتصر اليوم.. سيكون المهزوم أنا...حسنا؛ لقد عشت حتى الآن عددا لا بأس به من السنوات أحسبني منتصرا ولكنني لم أكن بمنتصر.. لقد كنت مغلوبا وذلك أسوا من الهزيمة لو تعلمون.. لم يقتلني الحزن بقدر الانتظار بلا سبيل ولم يخذلني سوى كل ما أملت به.. هنالك من يرحل بجفون مفتوحة على مصراعيها.. أوقن بأن منهم النادم، المغادر بلا حقائب، بلا حلم مكتمل، المغادر بقلب يعبأ بما لم يقال ولا يحزنني سوى أنني أحمل من كل ذلك بعضا .. سأكون كاذبا إذا قلت بأن عناقا واحدا كان سيفي بالأمر؛ لقد عشت وحدي بما يكفي للموت سواه ولكنني ها هنا أمتلك روحا مثقوبة إلى الحد الذي لن يجديها الأرض بما فيها.. لمن سيقرأون تلك الرسالة التي لا جدوى منها؛ كفى بكم علما أن أبأس ما في الأمر هو أنني لم أعرف كيف هي الوحدة سوى بحضوركم الواهي.. ما أردت في تلك الدنيا باتساعها سوى حب بلا مقابل يكفي لعبور الأيام وابتلاع الدنيا ويكن سبيل هدنتي مع نفسي وما تخفيه.. فلتبلغوا سلامي إلى كل ما حلمت به ولم ألقه يوما.. إلى سعي من لا وصول له.. إلى انتظار من لم يكن هنا.. إلى صبري الذي قد خذل كل منا الآخر .. فلتخبروا السماء بأنه ما من أحد قد أحبها بقدري.. مهلا فلتتركوا أمر السماء لي سأكون أقرب إليها أكثر من أي وقت مضى.. سأنظر منها إليكم كما تمعنت في النظر إلى ساكنيها بينما كنت هنا.. وحدي.. حينما ترون ذلك فحتما لن أكون هنا.. سأكون عند الضفة الأخرى التي لطالما تطلعت إليها وتمنيت الرسو بها، ربما لم تكن تلك الوسيلة المحببة للذهاب ولكن ماذا عساي أن أفعل.. إنها الدنيا.. إنه أنا.. ولا سبيل لي بالاثنين.. دمتم سالمين"..

وفي زاوية أخرى يجلس أصدقاؤه كالكلاب الضالة التي قضمت يد صاحبها بالأمس ومن ثم أتقنت دور الندم باحترافية: ياسين وسيد، بينما يجلس أحمد في ركن بعيد مظلم لا يصله ضوضاء المكان ولا تعترضه سلامات مبتذلة، تحوم فوق رأسه سحابات رمادية لا تهطل، غارقا هو في أفكاره التي لا يعلمها سواه وإلى جانبه "محمد" الذي لا يختلف كثيرا عن حاله إلا أنه كان أشد وطأة بقليل.. كان لديه أسبابه هو الآخر!! .. لم يسبق لأحدهم الاقتراب من محمود لأجله.. لكونه هو فقط، لم يحظ يوما بانتباه أحد فيما يتعلق بشخصه، بقلبه ومكنونه، بالنسبة للجميع ما هو إلا أداة نفع متحركة، كان الجميع يود شيئا وفي مقدمة تلك الصفوف ياسين وغيره من زملائه الذين يتوددون له وقت الحاجة فحسب، بالإضافة إلى صديقه الأوحد "محمد" كان كسراج أُضيء بعد ليال طويلة حالكة السواد لمن تناسى ماهية الضوء واعتادت عيناه اللاشيء ومن ثم حلّ الصباح وانتهى كل شيء تاركا إياه يتساءل لما لم يكتف الزمان بما أخذ، لما قد أعطاه وطنا لليلة واحدة فنام هنيئا مطمئنا ليستيقظ على صوت القنابل والمدافع، لقد كان بالنسبة له كما الأمل الذي تسلل إلى قلبه عنوة وكذلك رحل عنوة ومن بينهما يتقطع هو إربا.. كان خيبة إضافية في صفوف خيباته ولكنها الأشد وطأة فكما يقولون "يكن الألم بقدر المحبة" وأيضا بقدر البذل فما استبق محمود لأجله شيئا واحدا.. رحل محمود دونما يستطع إخباره بأنه "الجميع" في حين أنه كان "واحدا" من بين الكثيرين.. دونما يقص له ذلك الألم علّه يدرك كيف هو الفرق بين الواحد والجميع.. كيف هو الأمر حينما لا يكن هنالك بديل لأكثر أشيائك قيمة.. الأمر أشبه ب "قط" قدر الله له أن يمتلك من الأرواح واحدة.. واحدة فقط .. لطالما كان يحاول محمود الحفاظ على حبل وصالهما ولكن دون جدوى، كان وحده من يمسك بالطرفين حتى تساقطت أصابعه واحدا تلو الآخر لذا وبعد طول عناد قرر ترك الحبل هو الآخر دونما يعبأ لكونه قد أصبح في نظر محمد ندبة كغيره.. لم يقم

محمود بالتبرير يوما إذ أنه شعر بأنه ليس هنالك ما يقاتل لأجله منذ أن اجتاحت حياة صديقه البدائل التي جعلت من محمود ورقة خاسرة قد انتهى أجلها..

كان يعلم كل ذلك حيث إنه يمتلك قلبا لا يخطئ أبدا، يبصر الخيبة قبل وصولها بأميال ويشتم رائحة النفاق ولكن ما كان في وسعه سوى التجاهل وإيجاد السبيل لابتلاع شعوره واحتمالية صوابه من خطئه.، كان يود لو يضع حدا لكل هذا، أن ينل نصيبه من التمرد والعصيان، يود الاستسلام ورفع راية بيضاء لتلوح في كل أفق معلنة بأنه قد طفح الكيل، بل وعلاوة على ذلك كان يحمل عبء احتمال سطحيتهم بابتسامة باردة، أراد الصراخ بما في جعبته والقسم بأنه لا سبيل له سوى اللاشيء.. كان يود الاستعانة بطبيب نفسي فقد كان يدرك أن الأمور قد خرجت عن سيطرته تلك المرة فلا إيمان يجديه ولا وجود لباب واحد لم يطرقه.. أدرك بأنه ما عاد في وسعه النجاة وأن قوته لا تكف لبعض الأشياء.. كلما حاول كلما ساءت الأمور أكثر.. ولكن كعادة المصريين لا يعترفون بما هو عدى درجات الحرارة المرتفعة والسعال.. لذا فقد كانت حياته أشبه بالكمين، لا يعلم أيهما ينصر هو أم هم، أيهما على حق ولمن ستكون الغلبة والى أين المفر.. فقير هو إلى الحب أو ما شابه.. عليل لا يمتلك حق الشكوى والتوقف.. يظن جميع من حوله بإحاطتهم ومعرفتهم الكاملة به إلا أنه قد برهن خطأ الجميع..

***

كيف لكي بفعل ذلك؟!

فعل ماذا!!

. الانضمام إلى صفوفهم بل وتربع المقدمة!! أما كان ذلك باختيارك وإرادتك!!

. اختياري!!.. متى أتيحت لي فرصة الاختيار يوما.. لطالما كنت عالقا بين متاح غير مرغوب ومفروض لا سبيل لي به.. لطالما كان الاختيار بين الجيد والسيئ، الجنة والنار، ولكن يبدو بأنه هنالك ما يسمى بـ "الاختيار الأكثر هونا" .. الأمر أشبه بتخيير أحدهم بين قلبه وروحه .. وحده من يعلم بأنه ما من سبيل للعيش دون الآخر.. أشبه بذلك الطبيب الذي ألزم مريضه بالاختيار ما بين بتر قدميه أو السماح للمرض بالتفشي في بقية جسده ولكن ذلك الطبيب لم يكن يعلم بأنه ما من موت أعظم من الضعف وقلة الحيلة.

ألم تسأم العيش في دور الضحية، ألم تكتفي بلومي، عذرا عزيزي لست أنا الملام الوحيد.

. حسنا؛ ربما كنت أنا كذرات ثاني أكسيد الكربون التي ساعدت على الاحتراق ولكنني لست البنزين، لست النار ولست عواقبها.. لا سبيل لي بطبيعة خلقي ولا أملك من أمر العالم شيئا.. ربما كنت كقائد متخاذل ولكنني لم أكن ذاك السلاح الذي قد أدار فوهته إلى وجهي.. عندما أقع لا أصرخ ولا أشتكي، فقط أكتف بلملمة نفسي والنهوض في صمت أو البقاء أرضا حتى تشبع الدنيا عينيها من رؤية الشجاع بعد انكساره حيث تحول الدنيا بينه وبين كل ما آمن به يوما وما قاتل لأجله فتتشابه الطرق وتبهت معالم كل شيء..

ماذا تريد الآن؟

. أريد منك العودة إلى، لا طاقة لي بجسد خاو وفارغ مني..

ولكنني أكرهك، أمقت أنفاسك، سئمت ضعفك وتخاذلك، كم أنك بائس تتسلل آثار الخلاص أينما ذهبت، كاذب تتعهد في الصباح بما تودع رماده كل مساء وساذج تظن أن ذاك العالم سيمنح لجناحيك سماء ولنبتتك أرضا وماء..

. كيف لك بكرهي، إنكِ أنا وأنا أنتِ، كيف لكِ بالتملّص مني والانضمام إليهم، أصابعي.. أصابعي ما عادت تعينني لعناقي كل ليلة مثلما اعتدت.. وحدك تعلمين أن ذاك العناق هو بمثابة جسر عبوري لصباح آخر يحمل من قسوة العالم ما يكفي ويزيد، ضجيج رأسي ما عاد محتملا وتلك الوساوس التي ترددها كل حين؛ إنها تؤلمني وتفقدني القدرة على الصمود، أحادثك فلا تنصتين، أدفعك إلى الأمام فتعودي بي مائة خطوة، ما بالك يا نفسي.. ما عدتي تنتمين إلَيّ.. هل سنظل هكذا!!

. نعم ما دمت لا تستمع لي

. ماذا الذي يتوجب على فعله بعد؟!

لقد أخبرتك مرارا وتكرارا أن من هم مثلك لا سبيل لهم سوى تلك النافذة التي قد ملّت انتظارك، أو ذاك الحبل الذي تستشعره أناملك كل ليلة، وربما جرعة زائدة من تلك العقاقير التي يعجب الأطباء لوصفها لمن هم في مثل عمرك بلا سبب وجيه، نعم؛ إنهم لا يعلمون ولكننا نعلم كم من ليلة قد تخلّف بها الفجر عن القدوم، كم من صفعة يتلقاها وجهك كل يوم وكم من قوس قزح خلفته يداك على جسدك دونما رحمة، كم مرة تغاضيت بها عن حاجة جسدك إلى الطعام والنوم.. كم ابتلعت من خذلان وكلمات جارحة أشبه بخناجر مسمومة في قلب من جعل نفسه قربانا لمن حوله أولئك الذين لا يسأمون الأخذ وأنت بدورك لا زلت أجبن من إيثاري وحفظ بعض من حقي عليك، لم تشفق علي يوما فلم سأشفق أنا الآن؟!

. حسنا؛ سأفعلها، لقد عاندتك بما فيه الكفاية وكلما عاندت؛ كلما خسرت أكثر رغم كوني ما عدت أملك شيئا لخسارته، سأفعلها... لا جدوى ولا سبيل ما دمت أنا؛ أنا..

كان ذلك الحوار أشبه بشروق الشمس وغروبها.. أمر معتاد ومبتذل، عاش محمود حياته في ريب من حدوثه أو عدمه، لطالما كانت نفسه شيئا

لا يعرفه كما لو أنها لوحة لا يمثل هو جزءا واحدا منها، وها قد حدث ما يخشاه، لقد فعلها.. إنه ذلك الذي قد مات لكونه شيطان نفسه وملاك غيره.. كم أن الدنيا قاسية على هؤلاء الذين عجزوا عن حمل أنفسهم ومنحها بعضا مما يغمرون به العالم!!

***

يناير 2017

اصطف الشباب الجامعي في انتظار ذلك المحاضر الذي لم يسبق لأحدهم السماع عنه من قبل.. منهم من كان يمتلك حيزا مثقفا بداخله يميل لكل ما يخاطب العقل ويتحدث عن الحياة كما لو أنها شيئا مدروسا بعناية ومنهم من أتى ليحجز مكانا في الصفوف الأخيرة التي تضج بضحكات لئيمة وطرافات عبثية ما هي إلا ستار هؤلاء الذين لا يملكون حلما وليس بوسعهم سوى الاستهزاء بمن هم بمثابة مرآة لهزائمهم وتخلفهم عن القطيع.. بينما ينتظر الجميع: كان ذلك المحاضر يلتقط أنفاسه بصعوبة بالغة وراء الستار.. ترتجف أطرافه وبشكل أو بآخر قد انتقل الأمر إلى روحه.. ينظر إلى السقف مبصرا ما فوقه بمئات الأمتار ويدفع بنفسه إلى المسرح كمن لا يملك ما يخسره، بلا مقدمات ابتدأ حديثه سريعا بقول:

لفتت نظري بعض رسائل انتحار منها.. "كنت أتمنى أن يكون هناك شخص واحد على الأقل فخورا بى، لكن حتى أمي كانت تقول لى إنني دائما فاشل".. "أشعر بالبرد بالرغم من دفء الجو حولي، إنه البرد الذي يتسلل لروح المرء عندما يشعر بالوحدة".. " كم أتمنى أن ينقذني أحد"... "لم أجد يدا تربت على قلبي قبل أن أكمل كتابة رسالتي الأخيرة".. "سيدة إنجليزية وجد في مذكراتها تدوينة مكررة؛ اليوم لم يأت أحد لزيارتي".. "سأتمشى وصولا للجسر وإذا ابتسم لي شخص واحد لن أقفز".. "لم أكن على قيد الحياة في جميع الأحوال، "لم أستطع أن أحب نفسي، لم أكن

جيدا لأعيش هذه الحياة"، "الأفلام والموسيقى لم تعد كافية لمواجهة الحياة"..

"فكرة أن أحدا كان قادرا يقف بينه وبين الموت حضن، ابتسامة، ربتة يد، كلمة تقوله استنى.. كمل.. عايزك ومحتاجك.. بحبك.. أسف.. في اللي ممكن يستخف بهذا لكن هي دي الحقيقة شئت أم أبيت.. الفكرة مش في الحضن والكلمة وغيره الفكرة بتكمن في معجزة اسمها "السبب /الدافع".. كل واحد فينا محتاج سبب عشان يكمل.. عشان يقوم من السرير كل يوم.. وياكل ويشرب بنهم.. يبدي ردود أفعال.. يعافر ويقاوح مع نفسه والأيام ويستحمل رتابة العمر ووطأة المحطات.. محتاج خيط يربطه بالدنيا.. خيط يقوله إن مهمته لسه منتهتش .. والأهم من كل ده محتاج يحس أنه مهم، أنه في أول الرف ويستحق يكون أول اختيار، محتاج برهان واحد يأكدله حب اللي حواليه وقربهم لشخصه مش لدافع.. زوال حبهم مرهون بزواله وأنه مش مجرد كارت قابل للحرق والتخلي.. من فينا مش عايز يهرب لكن فيه اللي بيفضل محلك سر ويتحول تدريجيا لجثة متحركة وفيه اللي بيعيش حياته بيجري لكن في نفس المكان.. الدنيا صعبة وقاسية.. أحمالها عظيمة لكن كل ده بيهون لو اتقسم على اتنين.. لو الحزن اتقسم على قلبين والسند أصبح من لحم ودم.. الخوف أضعف من ربتة الأيد والحضن اللي بيقول بدون ما يقول "انا هنا.. جمبك".. مفيش في الدنيا مخلوق يستاهل يموت من الوحدة.. والاحتياج.. من قلة الدفا.. جيلنا أصبح جاف.. مستعد دايما للإفلات والتخلي.. متقبل لفكرة البدائل.. مش بإيده؛ جايز لأنه اتمسك لحد ما اتوجع .. اتعلم أن البقاء للأقوى .. للأقسى.. وأن اللين والطيبة فخ وكانسر.. كلنا اصبحنا مرضى بفكرة أن مفيش حد هيفضل وأن كله بيمشي.. فبقينا سريعين الإفلات واتحولنا لأسلحة دفاعية.."

كان ينظر إلى إيماءات الجميع برؤوسهم منهم الناظرين إليه ومنهم من انصب برأسه إلى الأسفل في خجل وحيرة، يرجو من الله أن يلهمه القوة لإتمام الأمر كما يجب..

لو المكتئب عقله بيشتغل بنسبة 1% في الواحد في المية دي بتكون ورا هدف واحد اسمه النهاية، معضلتنا كشعب مصري وعائقنا الأوحد هو الجهل، جهل التعامل مع الأمور بكافة أنواعها.. لو خدنا مثلا على التعامل مع المكتئب هنلاقي أن أغلبنا بيقول نفس الجمل المبتذلة.. في بيدي أمل ويعشمه ببكرة وبالعوض الخ الخ وفيه اللي بياخدها من قاصرها ويقول يا عم قرب من ربنا وكله هيتحل.. وصلنا لـ ٢٠١٧.. ولا زلنا مش قادرين نفهم إن الاكتئاب مرض بل هو أعظم الأمراض لأنه ملوش حبكة.. المصاب بيه بيكون في معادلة بيمثل فيها الطرفين.. في سباق محدش بيجري فيه وراه غير نفسه وحياته المؤجلة لأجل غير مسمى.. بيعاني من ألف سهم غير مرئي.. قراراته وقتها بتكون حتمية ومفيش حيز فيها للعقل والمبادئ بل والإيمان.. فيه مقال عظيم للروائية الجميلة أماني العدوي: إياك أن تخبر مكتئبا أن القادم أجمل.. المكتئب لا يرغب بالقادم حتى وأن كان "الجنة".. المكتئب لا يريد سوى الرحيل.. أن يتوقف قلبه عن النبض.. ألا يسمع.. ألا يبصر.. لا تخبر مكتئبا بأن القادم أجمل.. أخبره بأن ينتفض.. بأن يغضب.. بأن يخرج مكنون صدره.. وإن فشلت اكتف بضمه.. احمه من العالم.. هذا إنسان قد أخبره جسده وعقله وقلبه.. بأنه لا مفر..!!

لاحظ الجميع نبرة الغضب التي اجتاحت ذلك المحاضر كما لو أنه يخاطب قاتلا بعد جريمته أو يمنع واحدا من الإقدام عليها، تصبب عرقا رغم برودة القاعة لذا حاول لملمة شتات نفسه والتحدث بنبرة أكثر لطفا كي لا تنقلب الآية على صاحبها.. فتابع حديثه بقول:

"اتعاملوا مع اللي حواليكوا على أنهم حفنة من البلياتشو.. ابتسامتهم ما هي إلا حلاوة روح ربك وحده الأعلم بخفاياها.. طبقوا في تعاملكوا مثال البلياتشو اللي أخد خبر وفاة ابنه قبل ما يطلع ع المسرح ودموعه كانت مصدر سخرية للجمهور ظنا منهم بأنه جزء من العرض.. إحنا كلنا عايشين وجوانا بلياتشو بيمشي على وجعه.. بيعدي بينا الأيام لكنه مش

بيتجاوزها.. بيفضل من كل ابتسامة شقت نفسها من جوف الوجع؛ ندبة وحمل بيبان أثرهم تباعا لما القهوة اللي مش مضبوطة بتكون سبب كافي لهستيرية بكا أو لما النكتة البايخة بتثير ضحكنا بالنص ساعة.. لما نلاقي طعم الفرحة ماسخ والحزن طيف ملازمنا في كل لحظة وفي أي مكان.. عمرو حسن لخص كيفية التعامل مع المكتئب في قصيدة المايسترو لما قال: "احترموا المتعور من دول، حاوطوا المهموم قبل فراقه، لو كان ساكت يبقي لأسباب، أوعوا تشيلوا إيديكوا من الباب، املوا حياته بحب وأحباب"!.. اوعوا تشيلوا ايديكوا من الباب واوعوا تفتكروا أن اللي ورا الباب مش مستني وإن كان هو اللي حط الأقفال بإيديه..

لو سلطنا الضوء على حياة المشاهير هنلاقي أن حالات الانتحار أصابت أعظمهم وأكثرهم إلهاما للبشرية زي.. داليدا.. فان جوخ.. روبن ويليامز.. هيث ليدجر.. وده ينبهنا لنقطة أن النجاح، الفلوس، الجاه، الشهرة وحب الجماهير وغيره عمرهم ما كانوا كفيلين للوقوف كحاجز أودام الرغبة في الانتحار.. الحاجز الوحيد في نظري بيكمن في "الحقيقة "، امتلاك شيء واحد أو شخص واحد حقيقي، انقضاء عمر بدون سؤال: "أنا عمري ضاع في أيه أو على مين"، بيكمن في عبارة قالها هيث ليدجر: "كل من تقابله يسألكَ عن مهنتك، وهل تزوجت وهل تملك منزلًا كما لو أن الحياة هي قائمة مشتريات بقالة! لا يسألك أحد أبدًا هل أنت سعيد!" واللي بتوصلنا لنقطة أن رضاك عن حياتك وطريقك، ألفة روحك واستباحة جهدك وعمرك في ما ترضاه هما الأساس اللي بيتبني عليهما أي شيء، السراب يا سادة هو سلاح فتاك مش بيميز ما بين قوي وضعيف، فاشل وناجح، السراب بيقدر يخلق فجوات أشبه بثقوب سودا بتفضل تكبر جواك لحد ما بتنفي ماهيتك وشخصك وبتتحول عبد للبحث عن الخلاص وامتلاء الفجوة وأن كان بانتهاء وجودها ومحلها.. الانتحار مش بيكون اختيار من بين اختيارات كتير.. الانتحار دايما بيكون الاختيار الوحيد المتبقي للشخص.. نتيجة حاجة اسمها collapsed perception..

معامل الإدراك بتتقلص في اتجاه واحد مؤدي للنهاية.. رغم أن الإنسان مدرك أن حياته مش هتتكرَّر تاني وأنها رحلة ذهاب بدون إياب إلا إنه في أتم الاستعداد للتخلي عن كل شيء..

وضع يديه في جيبه، وقف منتصبا وقال بعد شهيق طويل: الحياة باردة بشكل كاف؛ خليكوا أنتوا الدفا.. تبتوا في بعض.. بلاش مكابرة.. بلاش حسابات وعقد.... بلاش أوهام بتقول "بكرة" "طب بعده".. بص في وشوش اللي حواليك.. اسمعهم بقلبك.. كونلهم وقت الحاجة طوق نجاة.. لو الدنيا وحشة كون أنت الحلو اللي فيها وأعرف أن "البعض" اللي هتمده لغيرك النهاردة وإن كنت في أمس الحاجة ليه هيكون هو "الكل" اللي هيرجعلك في الوقت اللي هتتقفل فيه كل البيبان وتصبح النجاة مستحيلة.. العظيم البير كامو قال: "عار على البشرية أن ينتحر شخص كان في أمس الحاجة إلى عناق طويل".. ارواحنا غالية لكن أودام الاحتياج، الوحدة والغربة قد تكون في نظر صاحبها أبخس ما يكون.. العمر مبيستناش حد.. وعمرنا ميستاهلش يضيع ببلاش.. محمود مكانش يستاهل يضيع ببلاش..

ساد الصمت في القاعة بأكملها.. يرتقب كل من الآخر ردة فعل تذكر ويتساءل من هو محمود.. في نظر الحضور كان ذلك الحديث موجها إليهم ولكن وحده كان يعلم بأنهم ما كانوا سوى مرآة لنفسه، لما يود إخبارها به وبيان اعتذار متأخر.. متأخر جدا..

لاحظ المحاضر تعابير وجوههم التي يرتسم عليها علامات استفهام في اقتطع حيرتهم بقوله: كان معكم دكتور أحمد العدوي ماجيستير في التنمية البشرية، أما بالنسبة لمحمود فهو كان طير في ملكوت الله لكن بدون جناحات، جناحه كان قلبه بس الأرض كانت أقسى من غريب ميملكش إلا قلب من لحم ودم، الفرق بينكوا أنه ما خدش فرصة على عكسكوا النهاردة.. متنسوش تقرأوله الفاتحة.. أشوفكم على خير..

كان وقع الحرف الأخير في حديثه على نفسه أشبه بإزاحة حجر جانبا دون التفوه بما لا يرضي الله والنفس..

ثلاث سنوات، اكتسب خلالها أحمد كل ما يؤهله ليصبح مدربا للتنمية البشرية، يلتهم كل فرصة ولا يترك بابا دون طرقه وانتزاعه إذا لزم الأمر، وضع نصب عينيه على الشباب، يبصر محمود في كل واحد منهم، من يراه يشعر بأنه يتنفس شيئا لا يشبه الأكسجين فقد كان يتنفس الخطوات اللي تقربه من هدفه يوما بعد يوم، يطمح لترك أثر يتمثل في كلمات صادقة يرجو من الله أن تكن كفيلة لتغيير مسار أحدهم وإنقاذ آخر، يطمح أن يكون صورة مصغرة للعالم الذي يريده، للمرة الأولى وجد لنفسه سببا للعيش، وجد ما يحلل نبضات قلبه وأنفاسه العبثية، وبالفعل كان اليوم هو أول محاضرة له في إحدى الجامعات وقد اختار الانتحار كموضوع أولي وفي داخله يعلم بأن ذلك الموضوع بالتحديد هو أشبه بخيط منه ابتدأ العنكبوت بيته وافتتحت به الجدة بالبسملة فراش أريكتها...

في كل صباح ومساء عند نافذته التي شهدت الكثير يتساءل لماذا؟!.. لماذا قد اختاره الآن عوضا عن محمود.. ما الذي يميز بينهما.. لما لم تتبدل الأدوار.. كيف له اليوم أن يكن أداة لتوعية من حوله والأخذ بأيديهم لتجنب ما لم يبصر سواه كسبيل بالأمس.. ولكنه لم يأبه بتلقي الإجابة فقد كان الوصول يكفيه حامدا الله على تضارب الأصوات بداخله.. عاش أحمد حياته يصارع الخطأ والصواب، الأمل واليأس، يشكو وطأة انفصام نفسه بينما هو عالقا في المنتصف ولكنه الآن أدرك بأن هنالك من لا يملكون سوى صوت واحد، قد يؤدي بهم إلى الصواب أو الأزرق.. وهنا يكمن الفرق بين أحمد ومحمود، كلاهما قد رأى من الدنيا ما يكفي وافتقر إلى نصيبه من الأهل والأصدقاء فتجرع الوحدة والسراب بما يعادل أنفاسه ولكن كانت الغلبة لمن استطاع الظفر بنفسه والنجاة بها لمجابهة كل ما هو سواها.. الأمر أشبه بمسكن يقف على

عامودين لا ثالث لهما.. خسر أحمد الأبواب والنوافذ إلا أن محمود قد خسر العامودين.. خسر الكيان فما عاد هنالك سبيلا للمكنون.. كلاهما كان يصون حق ربه حتى النخاع لذا بإمكانك رؤية الله في كل قول وفعل ونظرة، يخشى البعض من الشيء فيتجنب الشك فيما يغضب الله باليقين وأن خالف هواه وهنا نستطيع الجزم بأن الاكتئاب كقرحة المعدة لا علاقة له بدين أو مبادئ، لا علاقة له بما سواه، الاكتئاب ما هو إلا شيء غير قابل للجدال والأحكام.. قرار الانتحار وإن كان يترتب على نية مسبقة في تنفيذه يخلو من الوعي حيث تكن إشارات المخ تحت وطأة المعاناة فتندفع جميعها نحو هدف واحد وهو الفرار وإنهاء الأمر ولا سبيل لها بالنظر إلى ما هو أبعد من ذلك، لا طاقة لها بالغد حيث أن عباءة اليوم لم تترك مجالا لما سواها، لذا علينا التوقف عن اتهام المرء حزين هو أم منتحر بتقصيره في حق ربه وحياده عن المسار، بإمكانك حرقه حيا، دهسه بالسيارة ذهابا وإيابا أو رميه بوابل من الرصاص ولكن إياك أن تستهين بجرحه فتتركه عالقا بين وطأة ما يجابه واحتمالية مبالغته للأمور فتجعل منه وغدا يتساءل أيهما يمثل في تلك القصة الجاني أم المجني عليه ومن ثم يصطدم بحقيقة أن طوق نجاته من شوك وأنه في الأمر وحده.. وحده تماما..

ما عادت نافذة أحمد سبيلا لاستطلاع مكانه بين النجوم بل أصبحت هي الشاهد الأوحد لما كان عليه ولما قد أصبح.. في تلك اللحظة فقط كان قادرا على احتضان ذلك الاقتباس الذي لم يفارق ذهنه منذ أن رآه "ليشاهدنا اليوم من لا يجد في نفسه القوة الكافية للجري". حينما رآه كان بالكاد يحمل نفسه ويستثقل قلبا بحجم قبضة يده ولكن شيئا بداخله كان يوقن بأنه لا زال هنالك بداخله نبتة صغيرة في وسعها النماء.. لم يقطع في نفسه الأمل يوما راجيا من الله كل ليلة ألا يخيب.. وما خاب..

وجد أحمد ورقة مطوية بإحكام، ملقاة تحت قدميه، قام بفتحها بدافع الفضول لا أكثر فوجد بها: "أيدرك أحدكم كيف هو الاستمرار لمن

يعيش على الحافة، فلا يستند ولا يجلس، ترتعش أطرافه وبسبيل أو آخر قد انتقل الأمر إلى روحه، يردد كل يوم بإيمان قد فاق حدود صبره وكل فاق كل شيء "لا بأس.. سنحاول مرة أخرى"، يعلق آماله المتعبة على الفجر عله يحمل النجاة والسبيل.. يأتي الفجر ويليه عشرة ولا يحدث شيئا.. ومع كل ليلة تتبعه يمت بداخله أملا ومع إحياء آخر يمت هو بلا توقف، لا جلد له بالبقاء هكذا ولا سبيل له بتغيير الأمر أو إيقافه لبرهة، إن أراد الاستسلام وترك الأمر فلن يجد من السبل ما هو أيسر من ذلك وأن تمنى في قرارة نفسه أن يكن هنالك حاجز بينه وبين ذاك الاختيار فلن يجد، إن أبى وعزم على الصمود فسيدرك في نهاية المطاف أن صموده ما هو إلا إعداد للخيار الأول ولكن بشكل آخر؛ أكثر ثباتا وأشد وطأة، الأمر أشبه بمن يركض فوق فتات صبار، يوقن بأنه ما من سبيل لإنهاء الطريق ولكنه يريد الثبات للمزيد كي يخلق لنفسه شفاعة أمام الله عند الاستسلام، كمن يعرف مصيره وفصل الختام ولكنه لا زال يتشبث باللاشيء موقنا بأن المعجزات قد تحدث ولا يتمنى سوى القدرة على الانتظار حتى وقوع واحدة.. أكثر ما يؤلمني هو أنني ما حلمت سوى بالقليل وإذ أنني لم أجني سوى السراب.. سوى خيبات لا تنتهي ونوبات حزن قد أصبحت جزءا لا يتجزأ من ثنايا قلبي وكأنه زكاة روحي في الدنيا وسبيل شفاعتي في الآخرة.. لم أجد سوى معارك بلا زاد.. بئر يوسف بلا قافلة.. حزن يعقوب بلا قميص يوسف.. وصبر أيوب بلا استجابة.. أيعي أحدكم كيف هو الأمر حينما تدرك في منتصف طريق ذي اتجاه واحد؛ أنه لا طاقة لك بالمواصلة ولا سبيل لك بالعودة، تلتفت حولك فلا تبصر شيئا.. لقد تلاشت العلامات وما تبقى سوى تلك الزهرة التي ما عادت تحمل سوى ورقة واحدة مهترئة؛ كنتيجة حتمية لزرعها في غير مكانها.. وهنا تدرك كم أنك أحمق ساذج ظن بنفسه القوة للرقص على الأشواك حتى النهاية.. وفي كل مرة تصطدم بحقيقة أنه لا جدوى.. لا مفر.. كل ما فات قد ضاع سدى وما من شيء بداخلك يحتمل المضي لما هو آت.. إنه

إثمك أنت وما من أحد غيرك ليحمله.. إما المواصلة بشيء من الإعجاز أو الموت وما من سبيل آخر.. لست قادرا على المقاومة بعد الآن.. لقد نفذت أسباب لم تكن حقا هنا ولكنني قد جعلت منها شيئا حقيقيا يعينني على المواصلة ولكن يبدو بأنها قد سئمت كصانعها.. هناك أصوات بداخلي تردد أنني في المكان الخطأ.. أسير في طريق غير طريقي.. أصارع لأجل حلم لم أحلم به قط وأشقى في رحلة لم تكن منيتي.. بل وجدت نفسي بها وحسب أدفع ثمنا لا أعرف سببه.. وأحارب في معركة لست إحدى طرفيها.. لقد حاولت جاهدا إحجام تلك الأصوات وإرضائها بتجميل الواقع بأي طريقة ممكنة ولكن صداها يعلو كل يوم.. أشعر بها تصدع صدري وتحارب للخروج.. أشعر بها تقتلني.. تفنيني !! أتخيل آلاف المشاهد لصرخاتي الحبيسة ولكنها لم تحدث على أرض الواقع ولو لمرة واحدة.. لم أعطي لنفسي هذا الحق.. حق الصراخ والاستسلام.. فبالنسبة لي شقاء المقاومة أهون من مكابدة المرء للنهوض مرة أخرى بمفرده.. قد يستغرق بناء مجسم بضع ساعات وربما أيام ولكن سقوطه لا يحتاج لأكثر من بضع ثوان.. لقد وجدت نفسي في خضم أمر لا أدري ماهيته ولكنني مطالبا بالتحمل والمواصلة.. كيف لي أن أبحر وأنا لا أرى المرسى ولا أعلم إن كان هناك واحد أم لا.. ما فائدة القمر إن كانت الظلمات قد اجتمعت في قلبي.. ما فائدة النجوم أن كنت أنا ضالتي.. وكيف هو السعي إن كان الوصول لا يعنيني.. في الوصول بالنسبة لي كوصول سجين قد حكم عليه بالإعدام ظلما إلى مقر إعدامه.. ونجاته ستكن بمثابة المعجزة في زمن أصبح فيه البقاء حيا هو المعجزة الحقيقية.. أنا كالغريق الذي وجد نفسه محاطا بالأمواج المتلاطمة فإما أن يقاوم يائسا أو يستسلم ويترك جسده ليحتضنه البحر ويلقيه في القاع.. لا شيء ينتظره على أية حال وغيابه لن يضير الكون.. ولكن يجب أن اعترف فأنا قد وصلت إلى ذلك القاع منذ الأمد.. لا أعلم إلى أين يمكن للمرء أن يسقط بعد وصوله إلى

قاع أحلامه.. نفسه.. حياته.. هل هناك قاع بعد القاع.. هل هناك موت بعد الموت.. كيف لله أن يثق بي إلى هذا الحد".

انتهى من قراءتها بينما ترتسم على شفتيه ابتسامة مختلطة ما بين الانتصار والسخرية من مجريات الأقدار، لقد أدرك في نهاية المطاف بأن خياله ما كان سوى سرد لما هو آت.. أدرك كيف يمكن للحياة أن تولد من الممات وكيف للمرء أن يجعل من القاع سلما وصخرة يخطو بها فوق حياته المعبئة بالخراب.. أحمد لم تمنحه الدنيا طريقا لذا فقد قام بصنع واحد يرتضيه لنفسه ومن حوله.. كان هو ذاك المرء الذي يحمل بداخله ثقل الجبال، كل ما حوله يخبره بأنه ما من ضوء ينتظره في نهاية النفق وها هو الآن قد وصل إلى ما بعد النهاية ليصنع بداية جديدة تليق بانتظاره.. تليق بمن اتخذ من عبارة رضوى عاشور: "هناك احتمال آخر لتتويج مسعانا بغير الهزيمة، ما دمنا قررنا أننا لن نموت قبل أن نحاول أن نحيا" بساطا بلا سماء وأملا بلا دليل..

***

كل لديه أسباب كافية تدفعه إلى الانتحار، لديه عائقه الذي يجعل سعادته في بعد السماء واحتمالية المعجزات، ولكن ما يجعلنا نستمر هو ذلك الأمل الذي يخبرنا بأنه ربما هنالك طريقة لصنع شيء عظيم وإدراك غاية وجودنا على الأرض، ربما تلك النهاية المحتومة ستحمل في جوفها بداية لكل شيء وصلاحا ما دفعنا إلى الهاوية.. ربما ستضحك لنا الدنيا يوما، لن يستمر ما بنا ولن تكتفي الأقدار بوجه واحد، سيكن هنالك في الطريق ما يليق بكونه اعتذارا عما فات وهدنة مع كل ما هو آت الأمر فقط يحتاج إلى مزيد من الصبر والمحاولة إلى اللانهائية وما بعدها ومن ثم سيغدو الكون بخير، ستشرق الشمس وتستريح العاصفة، سيغدو الميدان آمنا كما لو أنه ما شهد حربا قط.. وقبل كل ذلك هو التشبث فيما تبقى منا والثقة فيما عند الله.. الثقة في وعده بعطاء مشروط

بالرضا.. في جبره الأشبه بمن يجد كل ما بذله عائدا إليه كعودة جيش منتصر بعد حرب لا يعبأ بأسقامه وجروحه، فلا يعير الجنود اهتماما لرؤوسهم الدامية؛ بالنسبة لهم تلك الدماء التي تكللت بفوز ما هي إلا قطرات من عسل، فلا يأسف القائد على شيء، ما يلبث حتى يجد السماء بما فيها قد تزاحمت في ثنايا قلبه فيحلق جناحيه بينما لا تزال قدماه هنا على الأرض.. يسير كمن يشعر للمرة الأولى كيف هو السير بروح أخف ونفس راضية ترى الكون بأجمعه كطفل يود احتضانه ومداعبته، هكذا هو جبره يأتي مناسبا، معادلا لبأسك ومضاعفا لاستحقاقك، يأتي شافيا أينما حل فتشعر كما لو أنك لم تذق الأسى يوما.. يأتي كغيمات مطر قد اجتمعت في يوم مشمس لأجل تلك الزهرة التي لا يدرك ذبولها سواه.. إننا نخطئ عندما نظن لوهلة أن أمور البدايات والنهايات قابعة فوق أكتافنا ونتناسى كوننا لم نؤمر سوى بالسعي، الرضا والتوكل على من بيده الأمر كله، نخطئ عندما نحمل أنفسنا ما لا طاقة لها به ومن ثم نشكو وطأة الدنيا، هنالك يا سادة نوعان من الإرادة: إرادة العبد التي تتمثل فيما أمرنا به الله والمحاولة بكل ما أوتينا من قوة وربما من ضعف حتى الرمق الأخير ومن ثم ينتقل الأمر إلى إرادة الرب التي تتطلب منا القليل من الصبر والكثير من اليقين، القضية كلها لا تحتاج سوى شهيق طويل وزفير يعادله وتسمية اليوم بـ "الغد" وما بعده حتى يأتي ذلك الغد الموعود، ربما يتحتم عليك النظر في اتجاه آخر عدا ذلك الذي لا تستطيع إليه سبيلا حتى ابيضت عيناك ووهنت عزيمتك، صدقوني لو أتيحت لنا الفرصة للموت بإيدينا أو بفعل القدر سنعرض عنه إعراض من هو جبان جدا للاستسلام وشجاع جدا للمقاومة.. في داخلنا نعلم بأن الدنيا تحمل نصيبا للجميع وخالق الدنيا لا يغفل عن أحد ولكنه الوقت..

إن الأمر برمته وأن عظم؛ مرهونا ببداية ونهاية فلا دوام لما تعانيه، خوفك أيضا مرهون بقدرك وذاك القدر ما هو إلا بضعة سطور في كتاب بيد حكيم خبير وعدك بألا يحملك فوق استطاعتك لذا فحينما يبلغ

عناؤك الحلقوم سيتوقف الأمر كله وتأخذ نصيبك من السلام الذي لم تعرفه ومن ثم يأخذ كل ذي حق حقه، تلك الرحلة قد يخيّل لنا أنها بضعة قرون تمر على المرء كمرور شاحنة بينما هي عند خالقها لا تتعدى جناح بعوضة.. إنما هي بضعة محطات لك في كل منها عبرة وغاية إن تجاوزتها أنت فلن تتجاوزك، ستتخذ من أكتافك مسكنا حتى تحسن استضافتها، تلك المحطات وإن كثرت ستحمل في جوفها واحدة أخيرة عساها تكن هي المبتغى لمن أراد الخاتمة وحسن الوداع وحينها ستدرك بأنك ما خسرت يوما.. ولكن تذكر بأنك ما دمت هنا فلا زال بيدك الكثير ولا زال قلبك في استطاعته ابتلاع الدنيا.. لا زال هنالك طرق تنتظر خطواتك ونسائم قدّر لها اختلاس ثنايا جبينك.. وحده الله يعلم متى تنتهي المهمة وكيف، وحده من يبصر في نفسك ما لا تعلم ويعرف النهاية كما البداية فيبتليك بما تقدر ويجبرك بما تحب، ما دامت الستائر لم تنسدل بعد فلا زال في نصيبك فصول أخرى لا تحتاج منك سوى التسليم بحقيقة أنك أهلا لها وما عداها.. لذا لا بأس أبدا.. لا بأس"...

تمت بحمد الله